فلسفة الدين والحياة عند أبي العلاء المعري
(دراسة نفسية)

م.م. أحمد علي إبراهيم الفلاحي
كلية القانون والشريعة (الفلوجة) / جامعة الانبار

يعد أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ) من كبار الأدباء العرب في العصر العباسي، ذلك العصر الذي يعد من أخصب العصور الأدبية ، وأثراها من حيث عدد الأدباء وغزارة نتاجهم الأدبي.

وقد عدّ مؤرخو ونقاد الشعر المعري من أكثر الشخصيات الأدبية عمقاً وثراءً في اللفظ والمعنى ، إذ تفرّد الرجل بميزات عديدة، كحدة ذكائه وحساسيته العالية، وعقليته الفذة، وسعة اطلاعه ، فضلاً عن ميراثه العلمي ، كونه من بيت علم وقضاء، فقد كان آباؤه يتولون قضاء المعرة، وكذلك رحلاته العلمية الى بغداد مدينة العلم آنذاك وغيرها من المدن، ثم عاد الى المعرة ،وسمى نفسه رهين المحبسين : يعني حبس نفسه ،وحبس بصره من الرؤية ، فمكث نحو خمسين عاماً أثمرت عن مؤلفات عديدة في الأدب والشعر والنقد أثرت الفكر والأدب والنقد العربي بآراء وأساليب وصور أدبية ميّزته من أدباء عصره والعصور الأخرى . وتمثلت تلك الإبداعات في نتاجه الفكري والأدبي أو الأدبي الفكري في آن واحد: كديواني اللزوميات ،وسقط الزند ، ورسالة الغفران ،ورسالة الملائكة ، والفصول والغايات وغيرها مما وصل الينا،ومما لم يصل ، فقد نقل الدكتور طه حسين عن القفطي والذهبي (أن الصليبيين عندما خربوا المعرّة وجرّفوا كتبها كان لأبي العلاء من هذه الكتب خمسة وخمسون كتاباً في أكثر من أربعة آلاف كراسة)[١].

وقد وصفه بعض القدماء بأنه كان حسن الشعر ، جزل الكلام ، فصيح اللسان، غزير الأدب ، عالماً باللغة ، حافظاً لها، صنّف التصانيف الكبار وأملاها من حفظه.[٢]

وتذكر الروايات أنه كان قوي الحافظة ،ويحفظ كل ما يسمع ، حتى زعموا أنه كان يحفظ ما يسمع من محاورات بالفارسية والأذربية، وروى المصيصي الشاعر أنه كان يلعب الشطرنج والنرد.[٣]

على الرغم من المبالغة المفرطة في بعض هذه الروايات إلا انها تعكس جانباً من فكر الرجل وفطنته ،وأثره في عصره.

وقد كُتب عن المعري قديماً وحديثاً مؤلفات عديدة ، تناولت جوانب عديدة من ابداعاته ، كلٌ ينظر إليها من زاويته أو تخصصه، أو مدى استيعابه لفكر المعري فتباينت مستويات القراءة وتعددت سعة وعمقاً من باحث إلى آخر. وربما تجاوزت هذه المؤلفات العشرات، إلا أنها لم تغلق الأبواب ،ولم تُحط بفكر المعري و نقده وفلسفته وعقيدته.

وعلى الرغم من كثرة هذه الدراسات وتعددها، وتعدد الآراء التي قيلت فيها وفي وصف المعري وتقييم نتاجه الأدبي والفكري بين مادح وقادح ،كلٌ حسب تخصصه وسعة اطلاعه

وفهمه نتاج المعري، وتعدد الآراء والثناءات والتهم التي ألصقت به وبفنه، فإن ذلك لم يمنع من الإدلاء بدلونا، بل كان سبباً مباشراً لهذه الدراسة في محاولة منا للنظر الى فكره ونتاجه الأدبي الفكري من زاوية ربما لم تأخذ حقها من التأليف والدراسة طامعين أن نخرج من بين هذه الدراسات بدراسة استقرائية تحليلية لهذه الدراسات وما خلّفه المعري من نتاج أدبي وفكري والوصول الى رأي ينصفه مما نسب إليه من آراء وأفكار.

ويبدو أن أغلب النقاد والمؤرخين القدماء أطلقوا آراءهم وأقوالهم على شخصية المعري من خلال بعض الأبيات الشعرية التي قالها أو نسبت إليه، فقوّلوه ما لم يَقُل ، لذلك خضع بعضها لأحكام عابرة أو سطحية تخلو من العمق والتأمل،وتبدو مسوقة في اطار القراءة التقريرية غير المتخصصة التي لا تقدم مسوغاً للقناعة لإثبات ما ألصق به من شتى النعوت والأوصاف فضلاً عما تحمله بين طياتها من تعصب□واتهامات.

بيد أن ثمة ما يُغرينا في إعادة تأمل نتاجه الأدبي ما يتيح لنا فرصة الكشف عن حقيقة أخرى تنفي في مضمونها ما نسب إليه من تُهم الالحاد والزندقة وافكار الفلاسفة وغيرها.

وعادة ما يعتمد النقاد شعر الشاعر للوصول الى تحليل شخصيته وعُقده وشذوذه وبيان أثر هذه الحالات النفسية في فنه.(٤) الا اننا سنتخذ من فهمنا لشخصيته طريقاً أو مسلكاً ننهجه لدراسة وفهم نتاجه الأدبي والفكري من خلال التفسير النفسي لبعض السلوكيات ، وما روي عنه من ردود فعل تجاه ما يحيط به ، كي لا نكرر ما قاله القدماء ، وطموحاً منا أن نكون بمستوى الفهم الحقيقي لما قاله وقصده في نتاجه الأدبي، غير متناسين ظروف العصر والبيئة والنشأة والثقافه وما أتصل بها من عوامل الأستعداد النفسي والفكري والموروث الثقافي، فضلاً عن تكوينه النفسي والخلقي والمزاجي . كون الشعر يعبر عن بعض الحالات النفسيه التي عاشها أو يعيشها الشاعر والتي تظهر متأثرة ببعض المفاهيم التي يستقيها من بيئته (٥) ، إذ أن العلاقة بين مفاهيم مجتمع معين ومواقف رد الفعل تبدو جليه واضحة لا يمكن التغافل عنها .

ولا يمكن إنكار علاقة الأدب بالنفس ، فالنفس تصنع الأدب ، وقد يرقّي الأدب النفس ، فالنفس (تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب ، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس)(٦). والأديب الواعي الصادق يعبر عن همومه ورغباته وعواطفه، ويحاول أن يوصل عمله إلى غيره، حتى يعيش التجربة معه كل متلقي بطريقته وسعة خياله وعمق تجربته.

لقد حاول أبو العلاء المعري أن يختلط بمجتمعه ، وأن يكون فاعلاً ومتفاعلاً إلا أن قسوة المجتمع آنذاك وأنانية وجهل بعض المتسلطين ، فضلاً عن حساسيته المفرطة حالت بينه وبين المجتمع لذلك نراه يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون الروح في الجسد الخبيث(٧)

والأبيات تعبّر عن زهده من الدنيا، ونقد الناس إليه، وشدة نقده الناس الذين تبعوا الدنيا فجعلتهم تحتها، وربما كان يرى نفسه فوقها. وكان بعض العلماء يتعمّد الإساءة للمعري حتى قبل أن يسمع منه ، فقد حفظت لنا الأخبار حكايات منها قول ابي القاسم التنوخي: إنه لما قدم المعري بغداد، ودخل على عليّ بن عيسى الربعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو، قال له الربعي : ليصعد الاصطبل ، فخرج مغضباً ولم يعد إليه.(٨)

فيما كان بعضهم يزوره قصد الإساءة إليه والانتقاص منه، فقد قيل : (إن رجلاً من قراء المعرة يعرف بأبي القاسم طلب إليه أن يقرأ شيئاً من القرآن أمام أبي العلاء ، فتلا قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾)(٩).

ومرة أخرى دخل عليه الوزير المشهور بالمنازي فسأل أبا العلاء : ما هذا الذي يرويه الناس عنك؟ قال أبو العلاء : قوم حسدوني ، فكذبوا عليّ، فتابع المنازي: وعلام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فقال أبو العلاء: والآخرة، ثم أطرق ولم يكلمه حتى قام عنه.(١٠)

فإذا كان هذا السلوك يصدر من بعض أمراء عصره وعلمائه – وهم صفوة القوم أو يفترض ذلك – فماذا ننتظر منه وهو الشاعر ذو الروح الشفافة والحساسية المفرطة ، فقد كان يغور في أعماقهم وينظر إلى جوهرهم ويتألم لهذا السقط الذي يصدر من علماء وقرّاء وأمراء ، ولا يتناسب مع السلوك الإسلامي؛ لأن المسلم لا يسخر من أخيه المسلم ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾(١١)، وقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم ((**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**))(١٢)،وقال:((**إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً**))(١٣). لذلك اعتزل المعري الناس وكان يقول : (أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي وأحسن إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء)(١٤)، وهذا يبين مدى ثقل هؤلاء الناس على نفسه إذ إنه كان يحمد الله على العمى حتى لا يراهم ، لذلك نراه ينظر بعمق وتأمل الى حقيقة الحياة والوجود والانسانية والبحث عن القيم الانسانية في الدين ، فجسد ذلك في شعره ونثره مما جعل فهمه عسيراً على كل من سبخت بصيرته، ورأى العلم والأدب والحياة بعين العالم المتهتك أو الجاهل المتبختر فاتُّهم المعري منهم بتهم عديدة منها الالحاد والزندقة والعزلة وسوء الاعتقاد وغير ذلك ، وأخذ أغلب الكتاب والمؤرخين يرددون هذه التهم دون النظر الدقيق الى حقيقة مقاصده .

أما في العصر الحديث ، فقد ردد بعض الأدباء بعضاً مما قاله القدماء ، ولكن بطريقة أخرى ولا سيما أوائل الكتّاب والباحثين بعد عصر النهضة أمثال جرجي زيدان والدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف ، إذ يبدو إن سعة التراث الأدبي ، والانشغال بالكم الهائل من الدراسات والتحقيقات ،وعدم تبلور الاتجاه النقدي العربي آنذاك هو الذي ساهم في توجّه الأدباء والباحثين هذه الوجهة.

وعلى الرغم من أن بعضهم حاول ان ينصف ابا العلاء ويزيل عنه بعض ما ظل يتردد عبر أحقاب الزمن من تهم باطلة، إلا إننا نرى إن بعضاً منهم قد إصطفّ بجانبها لكن بطريقة أخرى ، فقد وسم الدكتور شوقي ضيف أدب المعري بالتعقيد ، ورأى أن هذا التعقيد انقلب من حياته الى فنه، وأن فقده لبصره ،وإحساسه العميق بهذا الجانب جعله يطلب التفوق على معاصريه.

ونرى أن هذا الرأي لا يخلو من الغرابة؛ لأن شعر المعري لا يتميز بالتعقيد وإنما بسعة الخيال والعمق في التفكير ومخاطبة العواطف والعقول في آن واحد. ولا يمكن أن يكون فقدانه لبصره قد ولّد لديه هذا الاحساس والسعي الى التفوق ، وهو الذي حمد الله على العمى.

وفي مرة أخرى يرى الدكتور شوقي ضيف أن تأثر المعري بأقوال الفلاسفة ولّد عنده بعض الشكوك

التي أدت الى الانحلال في أول عمره ، ثم رجع في آخر عمره واعتذر.(١٥)

ان أثر الغرابة والتجني يبدو واضحاً في هذا التقييم ، على الرغم من محاولة الانصاف ، أما الدكتور علي شلق محقق رسالة الغفران، فقد حاول ان يتميز من غيره من النقاد والدارسين ، وأن يختط لنفسه منهجاً مغايراً وأن يتفهم مقاصد أبي العلاء ،وحاول أن يغور في عمق ألفاظه ومعانيه ، ليصل الى حقيقة النص الشعري عنده، لكنه هوى أهواءهم وعاد خالي اليدين عندما وصفه بالتأرجح بين الاسلام والالحاد ، فجعل منه مرة مؤمناً متنسّكاً وأخرى ملحداً متزندقاً(١٦).

وغاب عنه أن المعري لم يمس الدين الاسلامي او الديانات الاخرى بسوء وانما وجّه نقده الى بعض المسلمين والمتدينين كما سنوضح ذلك.

فيما ردّد جرجي زيدان قول القدماء من أنه أخذ بآراء البراهمة والهنود(١٧)،وقد اعتبر علماء النفس الجسم واحواله وعملياته الداخلية سواء أكانت واقعية تجريبية أم خيالية غيبية أساساً للسلوك(١٨) ، وهناك عوامل عديدة تتحكم في جوهر الشخصية ، فالعوق الجسماني مثلاً يؤثر في انطباع الفرد عن نفسه وتكوين مفهوم ذاته(١٩).

واتخذ بعض الباحثين من هذا المنهج مسلكاً للولوج الى حقيقة شخصية المعري، ومنهم الباحث حامد عبد القادر ، فنراه يعزو بعض سلوك المعري كالعزلة والزهد والطموح والتفوق في الأدب الى إصابته ببعض العُقد النفسية ، منها ظاهرة التعويض وظاهرة الدفاع عن النفس ، وربما يكون المعري قد جسد بعضاً من هذا التأثير وهذه العوامل – ان وجدت حقاً في شخصيته – ولكن بطريقة أخرى غير التي يراها الباحث ، ذات فكر ثاقب وعبقرية فذّة في فهم الواقع والمجتمع.

ورأى الباحث أن سر تكلّف المعري وتصنعه وتعقيده في شعره سببه غريزة فطرية هي حب الظهور والاستعلاء.(٢٠)

ولا يمكننا أن نطمأن لهذا الرأي أو نشارك الباحث فيه؛ لأنه لو كان ما ذهب إليه الباحث هدفاً للمعري لترجمه بوجه آخر كغيره من الشعراء ، ولتقرّب من الولاة والامراء ولتزلّف لهم وتقبّل هداياهم، ولو أراد الدنيا لفتحت أبوابها بتزلّفه للولاة أو قبوله تقرّب الولاة إليه، لكنه رفضها ، كما رفض الهبات والعطايا ومال الى الدرس والعلم والعقل والفلسفة والأدب والدين.

فقد روي ان المستنصر صاحب مصر بذل له من بيت المال بالمعرة من المال فلم يقبل منه شيئاً وقال :

لا أطلب الأرزاق والمولى
يفيض عليّ رزقي
إن أعط بعض القوت أعلم
أن ذلك فوق حقي(٢١)

ودعا صراحة الى نبذ الناس والابتعاد عنهم لأنهم مجتمع نفاق وتملق، فقد جاروا عليه عندما جعلوا محاسنه عيوباً وحسناته ذنوباً وعقله حمقاً وسفاهة وزهده فسقاً ، فقال :

دع الناسَ واصحبْ وحْش بيداءَ قفرة
فإن رضاهُم غاية ليس تُدْرَك
إذا ذكروا المخلوق عابُوا وأطنبوا
وإن ذكروا الخلاّق خانوا وأشركوا(٢٢)

وإن الدنيا استمالت الناس فأضلّوا الطريق وفقدوا الصدق وأحبّوا النفاق إذ يقول:

قد فُقِدَ الصدق وماتَ الهدى
واستحسن الغدر وقل الوفاء(٢٣)

وهو يشير بذلك الى قول النبي محمد في وصف المنافق ((**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب ،وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان**))(٢٤).

لذلك نراه يجدد الدعوة لعبادة الواحد الأحد عبادة توحيد لا لبس فيها ولا نفاق، والابتعاد عن الناس ولا سيما الأمراء والرؤساء؛ لأنه يرى في عشرتهم والتقرب إليهم تزلّفاً ونفاقاً وابتعاداً عن الدين إذ يقول :

توحَّد فإن الله ربك واحد
لا ترغبنَّ في عشرة الرؤساء(٢٥)

ويعبر عن عزة نفسه الزكية التي لا تقبل التزلف والتوسل لأحد ، سوى التواضع لرب العالمين ، فيقول :

إذا مدحوا آدميّاً مدحتُ
مولى الموالي وربّ الأمم
وذاك الغنيُّ عن المادحين
ولكنْ لنفسي عقدْت الذمم(٢٦)

وهذا يدل على شدة ورعه ،وزهده عن الدنيا وملذاتها ،وصدق إيمانه ونقائه.

وعلى الرغم من زهده وابتعاده عن الرؤساء والولاة، وعن المجتمع بما فيه من تزلّف ، نراه يفخر بنفسه ،ويعبّر عن نفس أبيّة عالية الهمة حيث يقول :

تُعدُّ ذنوبي عند قومٍ كثيرة
ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفواضلُ
كأني إذا طلتُ الزمان وأهله
رجعتُ وعندي للأنام طوائلُ(٢٧)

فلسفته للدين

استطاع ابو العلاء المعري أن يكوّن لنفسه فلسفة خاصة ، من خلال فهمه حقيقة الدين الاسلامي ،وتجسيد القيم الانسانية النبيلة والفكر الديني في الأسلام ،وفهم رسالة الأنسان في الحياة ، وكل ذلك متأتي من نظرته للمجتمع الذي يعاصره مع دراسة وتتبع طبيعة المجتمعات التي سبقته من خلال دراسة هذه التجارب وتقيمها .

وعلى الرغم من انه على المسلم الأتباع والامتثال إلا أن الاتجاه العقلي لم يكن غريباً عن الفكر الإسلامي ، فقد خاطب الدين الإسلامي العقل في أمور عديدة ، ودعانا الله سبحانه وتعالى الى التفكر والتدبر

في الكون وخالقه في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وتكررت بعض الألفاظ التي تدعو الى التفكّر والتدبّر نحو (يتفكرون) و (يعقلون) و (يتدبرون) و (يتذكرون) كقوله تعالى ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (٢٨) وقوله تعالى ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾(٢٩) وقوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٣٠) وقوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾(٣١).

وفي ذلك دعوة للمسلم من الحق سبحانه وتعالى الى النظر لأحواله وما يحيط به بعقله وفكره وتدبره .

يرى أبو العلاء أن روح الاسلام تكمن في السلوك الانساني بين الافراد والجماعات لافي العبادة فقط ، أو أنها طقس تشريعي تكليفي فقهي تنتهي وظيفتها عند حدود العبودية، وإنما يجب ترجمة الدعوة الإسلامية إلى سلوك وعقيدة ويجب تشرّب الروح الإسلامية في المسلم ، ولا يجوز حصرها في الوعظ والإرشاد عند الدعاة أو أداء أركان الإسلام فقط دون السلوك التطبيقي للمنهج الإسلامي.

وقد تجلى هذا الوعي المعرفي للعقيدة عند أبي العلاء من خلال (وعيه لتوحيد الله الذي ارتبط بالعبودية وتوحيد أوامر الله الذي يعني العبادة الحقة الواعية، ومنهجاً أخلاقياً مبيناً للحق ورادعاً للباطل ... وأنها تتويج للحالة العقيدية والحالة الخلقية ، وأنها شأن علمي عقلي - فردي وجمعي – تنفيذي قوامه الالتزام)(٣٢)، لذلك فهو يدعو الى إعادة منهجية التفكير بما يخدم الدين والدنيا فقد أدرك الإيمان الحقيقي ، وفهم التوحيد إيماناً وعملاً وسلوكاً ،ولاحظ الهوّة بين حقيقة الدين وجوهره ، و تديّن الناس وحدود معرفتهم بدين الله ، فدعا الى الصدق في النيّة، والاخلاص في العمل ؛لأن الحفظ يمكن أن يكون وسيلة الوعي ولكنه لا يمكن أن يكوّنه. ويرى أن الاعتقاد بالتفكير أفضل مما يكون بالتسليم،وان الصلاة والصوم وأركان الإسلام الأخرى يجب أن تتجسد في روح الإنسان وعمله بما يصدر عنه من مشاعر الإحساس بالآخرين وما ينطوي على ذلك من عمل الخير والتقوى ، ففريضة الصوم مثلاً مقترنة بجانب إنساني وهو الشعور بألم الفقراء والمساكين والإخلاص في إعانتهم، لذلك نراه ينتقد ويهاجم بشدة بعض الأمراء والفقهاء والدعاة الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، فقال يصفهم وينبه الذين غُرِّرَ بهم :

رويدك قد غُررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظُ النساء
يُحرّم فيكم الصهباء صبحا
ويشربها على عمد مساء(٣٣)

ويصفهم في موضع آخر بقوله :

تستروا بأمور في ديانتهم
وإنما ديئُهم ديئُ الزنادق
نُكذبُ العقل في تصديق كاذبهم
والعقل أولى بإكرام وتصديق(٣٤)

ثم يصف هؤلاء الذين غرتهم الدنيا فباعوا أنفسهم لها فيقول :

بخيفة الله تعبّدتنا وأنت عيْن الظّالم اللاّهي
تأمرنا بالزُّهد في هذه الـ ـدنيا وما همّك إلاّ هي(٣٥)

وقد عبّر عن سخطه من هؤلاء الذين ابتعدوا في سلوكهم عن السلوك الحقيقي للمسلم وأنكر النفاق والرياء الذي شاع عند بعض العلماء والأمراء والناس ، مما أفقده ثقته بالمجتمع ولاسيما العلماء ، فوجه نقده للمجتمع الذي ابتعد عن الفهم الحقيقي للدين وذلك ما دعاه الى الزهد وهجر الدنيا فراح يصيح وينادي ويدعو من وراء الحجب فيقول :

وقد فتشتُ عن أصحاب دين لهم دين وليس لهم رياءُ
فألقيت البهائم لا عقول تقيم لها الدليل ولا ضياءُ
وإخوان الفطانة في اختيال كأنهم لقوم أنبياءُ
فأما هؤلاء فأهل مكر وأما الأولَّون فأغبياءُ
فإن كان التقى بلهاً وعياً فأعيارُ المذلة أتقياءُ(٣٦)

وكان المعري يطمح ويطمع ويتمنى أن يرى مجتمعاً صادقاً يحمل ويدافع عن القيم التي يدعو إليها الإسلام الحنيف وأن يفهم حقيقة الدين والإيمان والتفكر واتباع العقل وعدم الخلط بين الايمان والنفاق ،وكان يدعو الى تجسيد حقيقي للقيم والمعاني الاسلامية في طباع المسلمين وأعمالهم، ذلك لأن الوعي السلوكي يجب أن يكون تطبيقاً للوعي المعرفي ، فيقول :

إذا آمَن الإنسانُ بالله فليكنْ لبيباً
ولا يخلطْ بإيمانه كُفراً(٣٧)

فما فائدة أن يحفظ الانسان القرآن ويقوم ببعض العبادات لكنه لا يحسن التعامل مع الآخرين، ألم يدعونا سبحانه وتعالى الى البر والتقوى، فقال جل جلاله ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾(٣٨)، وقال النبي محمد ﴿ **((الدين النصيحة))**(٣٩) ودعانا إلى حسن الخلق وإماطة الأذى عن الطريق وحسن الجوار وإكرام الضيف والتعامل الحسن .

على المسلم المؤمن أن يفهم ما يسمعه ،ويميز بين الحق والباطل ، فليس كل من اعتلى منبراً هو جدير بالاتباع ، وانما يجب اتباع العلماء المتعلمين الذين فهموا التوحيد إيماناً وعملاً وسلوكاً ، إلا أنه كان يرى من بعض الناس وبعض الدعاة عدم الفهم الحقيقي لجوهر الاسلام ،وعدم أخذهم المفاهيم الانسانية التي دعا إليها الاسلام ، وانشغالهم بملذات الدنيا ونسيان المساكين واليتامى ، حيث يقول:

هل صحَّ قولٌ من الحاكي فنقبَلَه
أم كلٌّ ذاك أباطيلٌ وأسمار
أمّا العقول فآلت أنه كذبٌ
والعقلُ غرْسٌ له بالصدق أثمار(٤٠)

ويتألم لمشهد آخر ربما شاع في مجالس الأمراء والولاة الذين كانوا يدعون الناس بالبر والتقوى ، لكنّ

مجالسهم لا تخلوا من الخمر والإفراط في اللذائذ ، إذ يقول :

قيام يدفعون الوفد شفعاً
إلى البيت الحرام وهم سكارى(٤١)

وأدى جهل بعض الناس الى فهم الدين ظاهرياً دون الغوص في أعماقه، فالذي يُسمى عبد العزيز أو عبد الرحيم يظن ذلك عبادة ، وأشار المعري إلى ذلك فقال :

يُسمون بالجهل عبد الرحيم
وعبد العزيز وعبد الصمد
وما بلغوا أن يكونوا له
عبداً وذلك أقصى الأمد(٤٢)

ورأى أن الذي يعبد الله حقاً هو الذي أصلح نفسه وجسّد حقيقة الايمان في داخله ، فالعبرة في النية السليمة لقوله **((إنما الأعمال بالنيّات))**(٤٣) . فما الجدوى من صائم لا يكرم الضيف أو من ساجد يؤذي جاره ، إذ يقول :

توهّمت يا مغرور أنك دَيّنٌ
عليَّ يمين الله مالك دينُ
تسير الى البيت الحرام تَنَسُّكاً
ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدين(٤٤)

وقوله :

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوفٌ على الجسد
وإنما هو ترك الشرّ مطرّحاً
ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد
ما دامت الوحش والأنعام خائفة
فرْساً فما صحّ أمر النسك للأسد(٤٥)

وهل هناك حقيقة أكثر بلاغة من هذه الدعوة للتعبير عن جوهر الدين الاسلامي ، فإذا كان الشر والحسد في صدر المسلم ولم يأمن الضعيف ، فهل لرب العباد حاجة لصلاة العبد؟.

وإن فقدانه الثقة في صدق بعض العلماء جعله يدعو الناس إلى أن عمل الخير أفضل من اللهاث خلفهم كونهم لا يقدمون للناس نفعاً، فيقول :

عليك بفعل الخير لو لم يكن له
من الفضل إلاّ حسنه في المسامع
لعمرك ما في عالم الأرض زاهد
يقيناً ولا الرّهبان أهل الصوامع(٤٦)

وإن كانت دعوته لا تخلو من التشاؤم والتعميم نتيجة ما لاقاه من بعض العلماء إلا أنه يحاول أن يذكّر المجتمع بحقيقة الاسلام ،والى فهم ما جاء به النبي محمد ، بعد ما أدرك هو جوهر الاسلام ، وأن المؤمن الصادق ليس كغيره ممن أدعى الايمان ، فيقول:

دعاكم الى خير الأمور محمدٌ
وليس العوالي في القنا كالسوافلِ
حداكم على تعظيم من خلق الضحى
وشُهب الدجى من طالعاتٍ وآفلِ
وألزمكم ماليس يعجز حمله
أخا الضعْف من فرضٍ له نوافل(٤٧)

وبعدما خالط الناس واكتوى بنيران مكرهم وغدرهم ، راح يصف للمجتمع المعاني النبيلة والأعمال الخيرة التي يجب أن يتزينها المسلم المؤمن ، والابتعاد عن شر الناس الذين لم يجن منهم سوى الكذب والنفاق ،وأن صحبتهم لا تثمر سوى الذم والألم، حيث يقول :

أكرمْ ضعيفك والآفاقُ مجدبة ولا تهنه ولوْ أعطيته القوتا
وجانب الناس تأمن سوء فعلهم
وأن تكون لدى الجلاّس ممقوتا
لابدّ من أن يذموا كل من صحبوا
ولو أراهم حصا المغراء ياقوتا
وقضِّ وقتك بالتقوى تجوِّزُه
حتى تصادف يوماً فيه موْقوتا(٤٨)

وهل هناك دعوة إيمانية أفضل من هذه الدعوة وهذا الصدق، وهذا السمو والاخلاص والانسانية في هذه الدعوة الاسلامية الايمانية، وهذا التشرّب الحقيقي لروح وتعاليم الاسلام ،واستغلال الوقت بلذة العبادة بدلاً من اللهو والعبث ، فهذا يعكس صدق إيمانه وزهده عن الدنيا، وهل هناك أنبل من إكرام الانسان لأخيه الانسان المضطر والملهوف مع الشعور بالرضا والسعادة وعدم مسه بألم أو أذى ،وهذه الدعوة جاءت متأثرة بقوله تعالى : **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**(٤٩) وقوله تعالى : **وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**(٥٠).

ويتجسد إيمانه وصدق نياته بدعوته الى فهم وإدراك معاني القرآن الكريم، ولاسيما سورة الفاتحة التي تحمل كثيراً من المعاني الاسلامية ،و قد أطنب المفسرون كثيراً في شرحها وذكر فضائلها ،و أن فهمها واستيعاب معانيها أفضل من مجالسة الناس وبعض المتدينين الذين لم يستطيعوا الارتقاء بأنفسهم ليكونوا مثالاً حسناً لغيرهم ، إذ يقول :

أمُّ الكتاب إذا قوّمت مُحكمها
وجدتها لأداء الفرض تكفيكا
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة
وآية لو أطعت الله تشفيكا(٥١)

وهذا يعكس مدى فهمه وتعمّقه في استيعاب معاني القرآن ، وأنه أدرك ما أدركه الأوائل من كيفية العبادة ،و لا سيما سورة الفاتحة ؛ لأن في فهمها وادراك معانيها شفاء للصدور وطريق الاستقامة والعبادة الحقة.

لذلك نراه يزهد الناس والدنيا ،ويقرر الاعتزال والتفرغ الى العلم والعبادة ؛ لأنه فهم الناس ،و هم في الدنيا اثنان لا ثالث لهما ، إذ يقول :

اثنان أهل الارض ذو عقل بلا
دينٍ وآخر ديّن لا عقل له(٥٢)

لقد ادرك المعري عجز هؤلاء عن التفكر والتدبر في فهم العبادة أو القيم الانسانية في الدين ، فهو قد آمن بوحدانية الله وعظمة هذا الدين لكن ليس بالظن

والاتباع إنما بالعقل والتدبر ، فالمؤمن العارف أفضل من المؤمن الجاهل إذ يقول :

كذب الظنُّ لا إمامَ سوى العقل
مشيراً في صُبحه والمساءِ(٥٣)

ثم نراه يشيد بالعلم والتعلم، ووجوب الميل الى العقل ، فما فائدة العلم إذا لم يُقدّم للناس نفعاً ، فيقول :

إذا كان عِلمُ الناس ليس بدافعٍ
ولا نافعٍ فَالخُسْرُ للعلماءِ(٥٤)

وهذه الدعوة مصدرها الاسلام ، فقد كان الرسول يدعو المؤمنين إلى التعلم والمنفعة من العلم ، فقد روي عنه أنه كان يقول في دعائه ((**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ،ومن نفس لا تشبع ،و من دعوة لا يستجاب لها**))(٥٥).

لذلك نراه يسعى الى العلم والسمو في التفكير ، حيث يقول :

لعمرك ما غادرتُ مطلع هضبةٍ
من الفكر إلاّ وارتقيت هضابا(٥٦)

زهده عن الدنيا ونقده المجتمع

نهج المعري منهجاً خاصاً ، وأختط لنفسه مسلكاً واضحاً في طريقة عيشه وتفكيره ، ونظرته الى الحياة ، وكانت له فلسفته الخاصة في الحياة فعاش حياة الزهاد الورعين ولبس خشن الثياب ، وزهد في طعامه وشرابه ، فكان يقول إن طعامه العدس والتين ، أو كما سماها البُلْس والبَلس :

يُقنِعُني بُلْسُنٌ يُمارَسُ لي
فإن أتَتْني حلاوةٌ فبَلس
فلُسَّ ما أخترتَ إنّ أرْوَحَ مِن
يَسار قارون عِفّةٌ وَفَلْس(٥٧)

وهذا الزهد وليد نفسه الحرة وقناعته بما لديه عما في أيدي الآخرين وصغر الدنيا في عينيه، وهذا يعبر عن نفسٍ مؤمنة زاهدة، وربما أثر في ذلك أصابته بالعمى في صِباه وفقدانه الإحساس بالسعادة لعدم قدرته على التعايش مع مجتمعه، فهو لم يتكسب بالشعر ، ولم يمدح أحداً تملقاً أو طلباً للمال، إذ رفضت نفسه الأبية ذلك وسلك مسلك العلماء والزهاد ، فعمل بما علم فنراه يقول في مقدمة سقط الزند (ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامعان السّوس)(٥٨).

وزهد عن الدنيا وملذاتها ، فقد روى أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني، فقال : (حدثنا أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادي : دخلت على أبي العلاء وأنا صبي مع عمي أبي طاهر نزوره فرأيته قاعداً على سجادة لِبْد وهو شيخ)(٥٩). وقال عنه صاحب مسالك الأبصار إنه (رفض الدنيا وما سلم وفرض غاياتها فعمل بما علم، وتداوى باليأس من مطامعها وذارى الناس بترك حظّه لهم ، ومع هذا ظُلِم ، نفض يديه من الدنيا وساكنيها وخفض لديه قدر محاسنها،وانقطع في بيت كان له بالمعرة لا يخرج منه إلاّ إلى مسجده ، وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جُنة تقيه المطامع)(٦٠).

وقد نُقل عنه أنه قال (إن الذي يجب لي في السنة نيّف وعشرون دينار فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب بقي لي ما لا يُعجب)(٦١).

والروايات التي تدل على رفضه اليسر والغنى كثيرة، كما أن الروايات التي تثبت زهده وابتعاده عن متاع الدنيا كثيرة أيضاً، منها ما رواه القفطي من أنه (سمع الجماعة يوماً يذكرون بطيخ حلب، فتكلّف وسيّر من ابتاع له منه حملاً وأحضرهم إياه، فأفردوا له منه عدداً يسيراً وتركوه في سرداب له كان إذا أراد الأكل نزل إليه وأكل مستتراً، ويقول الأعمى عورة والواجب استتاره في كل أحواله، ولما كان بعد أيام نزل خادمه إلى تفقّد المغارة ،ووجد البطيخ لم يعرض له وقد فسد، فراجعه في ذلك فلم يُجبه، واستدل الجماعة بذلك على أنه ما كان يتفكه)(٦٢).

لذلك فهو اعتزل الدنيا والمجتمع ،وحاول أن يرسم ملامح ذاته ومجتمعه في أدبه؛ لأن الأديب لابد من أن يتأثر بمحيطه وبيئته الثقافية والاجتماعية مع ملاحظة التباين في النفسيات والمواقف ، لذلك نرى أن أبا العلاء قد تسامى بنفسه عن واقع الحياة آنذاك،وكان نقده لمجتمعه والتوجيه والإرشاد تعرية حقيقية لذلك المجتمع وسلوكياته.

وعلى الرغم من سوء حاله ،وبلاء العمى ، ورياء الناس، نراه يحمد الله كثيراً على نعمائه التي لا تحصى، فقد رزقه نعمة القناعة والرضا وغنى النفس، إذ يقول:

الحمد لله قد أصبحتُ في دَعَةٍ
أرضَ القليل و لا اهتمَّ بالقُوتِ
وشاهدٌ خالقي أن الصلاة لـه
أجلّ عندي من درٍّ ويـاقوتِ
ولا أعاشِرُ أهل العصر إنّهم

إن عوسِروا بين محبوب وممقوت
يسير بي وبغيري الوقت مبتدراً
إلى محلٍّ من الآجال موقوتِ(٦٣)

إذاً ماذا يريد المجتمع من زاهد صاحب نفس زكية مؤمنة كهذه ومن ذا الذي يُبدل الدنيا وياقوتها بالصلاة سوى الزاهد العابد الصادق في عبادته.

وإنه لا يتوكل إلا على الله في تدبير أموره ؛ لأن لا ملك إلا هو الذي يسيّر الأمور كيفما يشاء ، إذ يقول :

يا خالق البدْر وشمسِ الضحى

مُعَوِّلي في كلِّ حالٍ عليك
وكلٌّ ملك لك عبدٌ وما
يبقى له ملكٌ فيُدعى مُليْكْ
قد رامت النفس لها مونلاً
فقلتُ مهلاً ليس هذا إليك
إن الذي صاغك يقضي بما

شاء ويُمضي فازجري عاذليك
البحرُ في قُدرته نَغْبةٌ
والفلك الأعظمُ فيها فليكْ(٦٤)

ولإيمانه بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي يرزق العباد، فقد أوكل أمره إليه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾(٦٥).

فيقول :

الناس مختلفون قيل المرء لا
يُجزى على عملٍ وقيل يُجازا
والله حقٌّ في تدبّر أمْرَه
عرف اليقين وآنسَ الإعجازا(٦٦)

ويكرر إيمانه بالخالق وتسليم أمره إليه، ويظهر سمو الروح والنفس المطمئنة بتدبير الخالق، ويُنزهها عن المطامع اللاهية والفانية فيقول :

إذا كنت بالله المهيمن واثقاً
فسلّم إليه الأمر في اللفظ واللحظ
يدبّرْك خلاّقٌ يدبّرُ مقادراً
تُخطّيك احسان الغمائم أو تخطي(٦٧)

وهل بصحبة أفضل من صحبة الخالق تغنيه عن الدنيا وما فيها، فلا إنس ولا جنّ يستأنس به بعد الله ، حيث يقول :

من لي بأني وحيدٌ لا يصاحبني
شيء سوى الله لاجن ولا إنس(٦٨)

وكان يعلم ان العلم الذي لا ينفع يكون آفة، لذلك زهد في دنياه ،وأخذ عنه كثير من العلماء والأتقياء ، فقد روى ابن فضل الله العمري أنه (أخذ عن أبي العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر وديانات)(٦٩).

وفي نقده المجتمع نراه يسخر من الزمن ومن حكامه الذين اعتلوا منابر الأمر والنهي في زمانه وهم أكثر الناس بعداً عنها، لبعدهم عن الله وعدم مشورة العقل والفكر ، إذ يقول :

يسوسُون الأمور بغير عقلٍ
فينفذ أمرهم ويُقال ساسهْ
فأفّ من الحياة وأفّ منّي
ومن زمنٍ رياسته خساسة(٧٠)

ويضيق ذرعاً من فساد هؤلاء الأمراء وظلمهم للرعية وبعدهم عن الصلاح فيقول :

ملّ المُقامُ فكم أُعاشر أمّــةً
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرَّعيَّة واستجازوا كيدها
فعدوْا مصالحها وهم أجراؤها(٧١)

ويعجب من هؤلاء الذين سموا أنفسهم ملوكاً ونسوا أو تناسوا مالك الملك وملك الملوك الذي لا ملك يدوم إلا هو ،وأن في دورة الزمان وهلك هؤلاء الملوك وانـدثارهم لعبرة لكل لبيب ؛لأنها مادارت إلا لحكمة ومعرفة ربانية ، فيقول :

تسمّت رجالٌ بالملوكِ سفاهةً
ولا ملكُ إلا الذي خلق الملكا
أرى فلكاً ما دار إلا لحكمةٍ فلا
تنس من أجرى لحاجتك الفُلكا(٧٢)

فلا سلطان إلا الله:

انفرد الله بسلطانه
فماله من كل حال كفاء(٧٣)

وهذا يدل على تقوى المؤمن العالم المفكر والحكيم، لكن الغريب أن يُتهم مثله بالإلحاد والزندقة ممن لم يستطع الارتقاء إلى مستوى فهم الحكم والدلائل الإيمانية في شعره.

إن المعري الحكيم المؤمن يُذكِّر من يسمّى بالملك النظر إلى حقائق الأشياء وأن الانسان يسير نحو نهايته ، فلا بدّ من العبرة لكنه يسوقها بحكمة الشيب وبياض الشعر للتعبير عن الفناء والانتهاء ،وليتخذ من قوله تعالى : ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ عبرةً ومنهجاً (٧٤) ليزدادوا يقيناً واعتباراً، حيث يقول :

وجدتُ سوادَ الرأس يسلُب لونَه
من الدَّهر بيضٌ يختلفْنَ وُجونُ
فلا يغترِرْ بالمُلْك صاحبُ دولةٍ
فكم من ضياءٍ غيبتْه دُجُونُ(٧٥)

ولن ينسى المجتمع لعلَّ من يسمع ويتدبر ويحتكم الى عقله ورشده ، فيذكرهم بأن الفناء مصير كل انسان فلا يغرنكم بالله الغرور، ولا تأخذكم الدنيا بزينتها وخداعها ، فيقول :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً
وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريْب الزمان كأننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبكُ(٧٦)

ويذكرهم بأن الدنيا دار زوال ، ويدعوهم إلى التزود بالتقوى ليوم الحساب:

إذا لم تكن دنياك دار إقامة
فمالك تبنيها بناء مقيم(٧٧)

ويبدو أن رياء الناس والالتباس في فهم وتطبق تعاليم الدين الحنيف جعله يكرر النصح والارشاد ،ويذكّر بحقيقة الانسان ،وحق الخالق على المخلوق ، فإذا كانت قلوبنا غلفاً، وأجسادنا دنستها المعاصي ولا تعرف الطهارة فكيف نطلبها ، فيقول :

أنسيت حق الله أم أهْملته
شرٌّ من الناسي هو المتناسي
نبغي الطهارة في الحياة وإنما
أجسادنا جُملٌ من الأدناس(٧٨)

ويعبّر عن إيمان حقيقي مصدره قلب زاهد مؤمن خبر أن الدنيا ليست دار مقام وخاب الذي غرّته بملذاتها الفانية ونسيّ دينه فجسّد، قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ، إِلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(٧٩) ، فليس للمرء إلا دينه وعمله ولا شفيع من الله إلا هو ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فلا وجه يبيض ولا عزّ ولا شرف إلا للمؤمن الصادق ، إذ يقول:

خاب الذي سار عن دُنياه مرْتحلاً
وليس في كفه من دينه طرَفُ
لا خير للمرْء إلا خير آخرة
يبقي عليه فذاك العزُّ والشرف(٨٠)

فالأرض لله ، ونحن ضيوف عليها ،وحقّ على الضيف أن يتأدب ولابد من رحيله يوماً، فيقول :

الأرضُ للهِ ما استحي الحلول بها
أن يدّعوها وهم في الدار أضياف(٨١)

ويُذكر بأن الدنيا ليست دار إقامة ، إذ يعقبها موت وقيامة وعقاب وثواب ،وهي كما وصفها الرسول بقوله: ((**الدنيا ملعونة ، ملعون مافيها إلاّ ذكر الله تعالى وما والاه ،وعالماً أو متعلماً**))(٨٢). فليعتبر أولو الألباب وليتعظ كل حكيم، إذ يقول :

لعمرك ما الدُّنيا بدار إقامةٍ
ولا لحيّ في حال السلامة آمن(٨٣)

وقوله :

حياةٌ وموتٌ وانتظار قيامةٍ
ثلاثٌ أفادتنا ألُوف معان
فلا تمهرا الدنيا المروءة إنها
تُفارق أهلها فراق لعان(٨٤)

وهل يصدر مثل هذا النص المشوب بإيمان صادق الا عن قلب سليم ، لكن على الرغم من ذلك لم يسلم من جهل الجاهلين وحسد الحاسدين ، فرموه بتهم عجيبة غريبة ولا تمت لروحه الطاهرة بسلطان.

ولأنه علم أن الدنيا لا تساوي شيئاً عند الله سبحانه وتعالى ،هو الذي يوزع الارزاق بين عباده ويقول جلّ قوله : **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**(٨٥) وقوله تعالى : **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**(٨٦)، وقول الرسول : ((**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء**))(٨٧)، فقد راح يذكر الناس ويقول:

ما أكرم الله عزَّ من ملك
ورزقنا من دلائل الكرم
كمْ عال من كافرٍ وكافرةٍ
من ابتداء الصبا إلى الهرم(٨٨)

وكلما اتسع المقام جدّد التذكير بأن الدنيا متاع الغرور ، فيقول :

ألا إنّما الدّنيا نُحُوسٌ لأهلها
فما في زمانٍ أتت فيه سعود
ويوصي الفتى عند الحمام كأنّهُ
يمرُّ فيقضي حاجةً ويعودُ
وما يئسِتْ من رجعةٍ نفْسُ طاعنٍ
مضتْ ولها عندَ القضاء وعود
تسيرُ بنا الأيام وهي حثيثةٌ
ونحن قيامٌ فوقها وقعود(٨٩)

ولأنه أيقن أن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم، راح يدعو كل مغرور الى التوبة ومراجعة النفس والعودة الى الله ؛ لأن باب التوبة مفتوح وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فيقول :

أعجل بتسبيح ربّ لاكفاء له
أو رتّلنه ولا تجنح إلى رتل(٩٠)

ويدعوهم الى ان العمل والعبادة الصادقة خير من اتباع متنسك غرّته الدنيا :

اتق الله واحذر أن يغرّك ناسك
بما هو فيه من تغيّر حالة
فما أنفس الأقوام إلا توابع
لقائل زورٍ مُفرطٍ في محالة(٩١)

وهذا قول لا يصدر إلا من مفكّر قد خبر الدنيا وأحوالها ، وفهم الناس وفساد أحوالهم من إدّعاء الايمان أو علم الغيب والغيبيات ، فيقول :

يُنجمون وما يدرون لو سُئلوا
عن البعوضة أنّى منهم تقف(٩٢)

وهو بذلك يعكس مدى صدقه وعمق تجربته وسعة اطلاعه ، لذلك نراه يصرح بذلك ، فيقول :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من أخبارهم طرف(٩٣)

ولأن الأمة الاسلامية أمة وسطا، كما قال سبحانه وتعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**(٩٤) ، وتطبيقاً لهذا المفهوم فقد نصح المعري إلى فهم هذه الدعوة ، والعمل بها ، فقال :

إذ كنت تهوى العيش فابْغِ توسّطاً
فعند التّناهي يقصر المُتطاول(٩٥)

ويعلن إيمانه بقضاء الله وقدره ،وإن نِعم الله سبحانه لا يضاهيها عمل أو عبادة ، فيقول:

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكم
ولا حماكم غماماً سوءُ أعمال
وإنما هي أقدارٌ مرتّبةٌ
ما عُلّقت بإساءات وإجمال
دليل ذلك أن الحُرَّ أعوره
قوتٌ وأنّ سواه فاز بالمال
كم جدّ بالرزق ثاوٍ في منازله
وخُدَّ سارٍ بافراسٍ وأجمال(٩٦)

ثم يصف للمجتمع وصفةً الحكيم اللبيب المؤمن الزاهد الورع في الصلاة والتهجد لرب العباد، فيقول :

إركعْ لربّكَ في نهارِكَ واسجدِ
ومتى أطعْت تهجّداً فتهجّدِ(٩٧)

يتبين لنا أن أبا العلاء المعري قد آمن عبادةً وسلوكاً ،وتطابق منهجه في الحياة ، مع فكره وعقيدته ، فزهد في الحياة وصدق مع نفسه ومع الآخرين ، وأن دعواته بمثابة الارشاد والتوجيه من ناسك ، ليس لجيله فقط وإنما لكل مسلم في كل زمان ومكان.

ومثلما كان يرشد الناس الى العبادة وعمل الخير ، كان يوجههم الى ترك الشر والنفاق والظلم والنظر الى الناس بمعيار واحد ، فكلهم أسوياء في الدين ولا فضل لإنسان على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ لأن التعامل بمنظارين يعد ظلماً وقد نهى النبي محمد عن الظلم فقال : ((**اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة**))(٩٨)، إذ يقول :

برئت الى الخلاّق من أهل مذهب
يرون من الحق الاباحة للأهل(٩٩)

وهذا هو جوهر الاسلام وروحه فقد دعانا الرسول الى معاملة الناس معاملة واحدة وتطبيق حكم الله فيهم ،وجسد ذلك بقوله الشريف : ((**إنما أهلك مَنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ،وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايْم الله**

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[١٠٠].

ويرشدهم الى ترك المعاصي ولا سيما الكبائر كالخمر الذي يسلب العقول ، فيقول :

إياك والخَمر فهي خالبةٌ
غالبة خاب ذلك الغلبُ
خابيةُ الرّاح ناقةٌ حفلتْ
ليس لها غير باطل حلبُ[١٠١]

ولأنها أم الكبائر ، فإن شربها : يجلب المعاصي والآثام ، والبعد عن الدين ، لذلك فإن المعري يُكثر من النصح بتجنبها والابتعاد عنها، فيقول:

إذا دارت الكأس في دارهم
فقدْ رَحل الدّينُ عن دارهمْ
وفي رفع أصواتهم بالغناء
دليلٌ على حطِّ أقدارهم[١٠٢]

وإن لم يفد نصحه فإن نفسه الزكية تستأنس بشرب الماء العذب ولا تغضب الله سبحانه وتعالى ، إذ يقول:

إن شربوا الراح فما شُرْبُنا
في الراح إلاّ الأزرقُ البارد[١٠٣]

ويقر بالذنب فيناجي الله سبحانه وتعالى أن ينجيه من الدنيا بعدما يئس من اصلاح الناس، فيقول :

نُضْحِي ونُمسي كبني آدم
وما على الغبراء من سفيه
فنسألُ العالم انقاذنا
من عالم السَّوءِ الذي نحن فيه[١٠٤]

ويضيق ذرعاً من طباع الناس فراح يشكوهم ويهجوهم بعدما فقد الأمل في هدايتهم، فيقول:

عوذ بالله من قوم إذا سمعوا
خيِّراً أسرّوه أو شرّاً أذاعوه[١٠٥]

وفي بعده عن الناس واعتزالهم تجنباً للأذى، يقول:

ومن عاشَ بين الناس لم يخل من أذى
ا قال واشٍ أو تكلّم حاسد[١٠٦]

نلمس في هذا البيت سوء معاملة الناس له، وحسد الحاسدين ،وقول الواشين الذين هاجموه حسداً وغلاً وجهلاً، ويبرر بعده عن الناس تجنباً لنفسه من سجاياهم السقيمة ، إذ يقول:

بعدي عن الناس برء من سقامهم
وقربهم للحجى والدين أرواء[١٠٧]

ويرى أن المجتمع فقد النُبْل والحياء ببعده عن الدين ، فيقول :

تعالى رازقُ الأحياء طُرّاً
لقد وهت المروءةُ والحياءُ[١٠٨]

ويعلن براءته وبعده عن قومه الذين اتخذوا الضلالة والرياء مذهباً، حيث يقول:

إذا قومُنا لم يعبدوا الله وَحْدَه
بنصحٍ فأنا منهم براء[١٠٩]

ثم يوجه نقده للذين أعابوا الدنيا ونقموها ويذكرهم بأن عيب الدنيا يكمن فيهم فيقول :

نقمت على الدنيا ولا ذنب أسلفت
إليك فأنت الظالمُ المتكذّب[١١٠]

ويعلن يأسه من مجتمعه بعدما تفشّت العيوب إذ لا مكان له بينهم، حيث يقول:

بني آدم بئس المعاشر أنتم
وما فيكم وافٍ لمقتٍ ولا جُبٍّ[١١١]

واضحى الرياء عاهة ملازمةً للمجتمع، وفُقِدَ الحياء بعدما كان وشماً يتحلّى به المسلم ، لقول رسول الله ((**الحياء من الإيمان**))[١١٢]، ويوجه جلّ نقده الى بعض العلماء الذين اتخذوا من الدين ستاراً لأهوائهم ومطامعهم ، حيث يقول :

قد حُجب النورُ والضياءُ وإنما دِيننا رياءُ
وهل يجودُ الحيا أناساً منطوياً عنهم الحياءُ
يا عالمَ السوء ما علمنا أن مُصليك أتقياء[١١٣]

لذلك نرى أن نظرةً تشاؤمية إلى الحياة قد علت على فكرة ، يعلنها صراحة، بقوله :

إلى الله أشكو أنني كلّ ليلةٍ
إذا نِمتُ لم أعدَمْ خواطر أوهامي
فإن كان شراً فهو لابدّ واقع
وإن كان خيراً فهو أضغاث أحلام[١١٤]

وعلى الرغم من زهده وعفّته فإنه لم ينزّه نَفسه، وادرك أن الاعتراف بالخطأ فضيلة ،وإن الكمال لله سبحانه وتعالى وليس للإنسان الذي خُلق ضعيفا ،و ليس المؤمن الذي يخفي ذنبه وينكره، إنما المؤمن الذي يدين نفسه ولا ينسى الآخرة كما قال رسول الله ((**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت**))[١١٥] إذ يقول :

عيوبي إن سألت بها كثيرة
وأيّ الناس ليس له عيوب
وللإنسان ظاهر ما يراه
وليس ما تخفى العيوبُ[١١٦]

ولم يطلب الدنيا ،ولم تدخل قلبه بما فيها، لذلك نراه يرفضها لتذهب لغيره، فيقول :

إن كانت الدنيا عروساً تُرى
فلتنصرفْ عنك بتعنيسها[١١٧]

ولصغرها في عينه يكرر رفضه لها ، على الرغم من أنه لا غنى عنها ، بعدما يرسم صورة جميلة شبَّه فيها علاقته بالدنيا ، حيث يقول:

يا أمّ دفرٍ لحاكِ اللهُ والدةً
منك الإضاعة والتفريط والسرف
لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها
لكنك الأم، هل لي عنك منصرف[١١٨]

ويطلب الرحيل صراحةً بعدما ملّ المقام ويئس من مصاحبة الناس، أو صلاح أحوالهم لفقده الثقة بهدايتهم، فنراه يناجي الربّ ويسأله الرحيل بقوله:

ربِّ متى أرْحل عن هذه الدُّنيا
فإنّي قد أطلتُ المقامْ
فلا صديق يترجى يدي
ولا عدوٌّ يتخشى انتقام[١١٩]

فالحياة عنده صيام، وعيده هو يوم وداعها، إذ يقول :

أنا صائمٌ طول الحياة وإنما
فطري الحمام ويوم ذاك أعيّدُ[١٢٠]

وتتوق نفسه إلى الآخرة ، فهي دار الرضا والسلام ، فلا عاقل يلجأ إليه في دنياه ، فوصف ضلالتهم من خلال صورة فنية لا يرسمها سوى حكيم عالم فيلسوف، لذا راح يناجي ربه مرة أخرى ،ويقول:

يا ربِّ أخرجني إلى دار الرضى
عَجلاً فهذا عالم منكوس
ظلّوا كدائرةٍ تحوّل بعضها
من بعضها فجميعها معكوس
لا كيس بينهم وأفضل من ترى
في دينه مثل العقير يكوس(١٢١)

والذي يرفض الدنيا بملذاتها ويناجي الله سبحانه وتعالى لتركها والانتقال الى الآخرة التي تمثل دار الرضى له ، هل يتهم بالالحاد أو الزندقة .

إتهامه بالإلحاد والزندقة

لقد التبس على الناس الفهم الحقيقي لبعض فرائض الدين والعبادات ولا سيما في عصر المعري، إذ رأى بعضهم في الذي يتعرض للدين علمياً أو عقلياً إلحاداً وتزندقاً ، حيث يرون أن الدين هو الاتباع والامتثال المطلق، ولأن أبا العلاء اعتمد تجربته الانسانية ،ورأى أن الايمان المعرفي أفضل من الايمان بالاتباع؛ لأن الوعي السلوكي يعكس الوعي المعرفي للفرد، لذلك رأى أن إيمان الناس ينقصه السلوك أو تجسيد الشخصية المؤمنة التي دعا إليها الاسلام إذ أن (الوعي معرفة كلية على أساسها تبنى القصيدة ويلتزم حامله بالمرجعية الاخلاقية)(١٢٢). والوعي لا يعني الحفظ وحده ،وأنه لا يدرك بالنقل فقط إنما بالعقل والتدبر.

ولم يأت توجه المعري هذا عن جهل، إنما هو حصيلة متابعة علمية دقيقة لعلوم الشريعة الاسلامية ، فضلاً عن تتبعه واطلاعه على الديانات الاخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية ،والعلوم المعرفية كالفلسفة اليونانية والارث العربي من تاريخ وأخبار وأدب ، وقد صرح بذلك هو نفسه كما سنبينه في حينه.

ويبدو أن هذا الرقي الفكري لم يرق لبعض علماء عصره ، أو أنهم لم يرتقوا لفهم هذه المعرفة، فألصقوا به شتى التهم ، منها الإلحاد والزندقة ، وتذرعوا بذرائع واهية ، منها أنه ترك أكل اللحم ومشتقاته تشبهاً بالبراهمة، لكن يبدو من خلال شخصية المعري وزهده عن الدنيا وصدقه ، أن تركه أكل اللحم طريقة في الحياة وليست طريقة في التفكير، وهذا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف(١٢٣). مع ملاحظة أن الذين أتهموا بالزندقة في العصر العباسي أتهموا بها نتيجة فسقهم ومجونهم وعبثهم واندفاعهم نحو غرائزهم مثل حماد عجرد وبشار والخليع وغيرهم، لكن الغريب أن يُتهم المعري ،وهو الذي طلّق الدنيا ،ولم يستجب لغريزة واحدة، بل أنه تنزّه عن الدنيا ، غير أنه كان يرى ان الاعتقاد بالتفكير وليس بالتسليم المطلق ، ولا حرج من الميل إلى العقل في الدين شريطة أن لا يتعارض مع الشرع.

وحيكت حوله روايات عديدة ،وفسر شعره على غير ما أراد، ونسبوا ووضعوا له أشعاراً لم ترد في ديوانه ، والغريب أن الكتاب والمؤرخين ما انفكوا يرددون هذه الروايات دون النظر إلى سند رواياتها ،ومدى صحتها فتكررت في مؤلفاتهم مثل المنتظم في تاريخ الأمم لإبن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) وتتمة المختصر في اخبار البشر لإبن الوردي (ت ٧٤٩هـ) ،وعقد الجمان للعيني (ت ٨٥٥هـ) وبغية الوعاة للسيوطي (ت ٩١١هـ)، ومعاهد التنصيص للعباسي (ت ٩٦٣هـ) ،ونزهة الجليس للعباسي المكي (من علماء القرن الثاني عشر) ، فضلاً عن تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، إلا إنه لم يمل إلى هذه الروايات ، إنما ورد ذكرها بصيغة الخبر التقريري. من هذه الروايات ماورد عن ابن الجوزي قوله (قد حُكي لنا عن أبي زكريا إنه قال : قال لي المعري : ما الذي تعتقد؟ فقلت في نفسي اليوم أعرف اعتقاده ، فقلت : ما أنا إلا شاك ، فقال : هكذا شيخك، وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد ،وذلك أمر ظاهر في كلامه وأشعاره ،و إنه يرد على الرسل ويعيب الشرائع ويجحد البعث)(١٢٤).

والذي يبعث على الشك في هذه الرواية عدم سندها، إنما اعتمد المؤلف على ما حُكي أو قيل له ، دون النظر أو التمعن في صحتها ، أو محاولة إثباتها ، من خلال النظر إلى شعر المعري ، ولا سيما شعره في الزهد ، ثم هل أن أبا العلاء الذي يدعو الى العقل والتفكير في كل الامور ينطوي عليه هكذا اختبار دون أن يشعر به ،وهو الأديب ذو الحسن العالي ،والذكاء المتوقد ، ثم لماذا يسأل المعري أبا زكريا عن اعتقاده ليعلن له شكه، وهو الذي قال أجمل الاشعار في العبادة ،ودعوة المجتمع الى اتباع الدين وعدم الاغترار بملذات الدنيا.

ونقل كذلك ابن الجوزي عمّا روي إليه عن أبي الوفاء بن عقيل أنه قال : (ومن العجائب أن المعري أظهر من الكفر البارد الذي لا يبلغ منه مبلغ شُبهات الملحدين ، بل قصّر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطناً وأنه مسلم في الباطن)(١٢٥). ولا ندري هل كان لهذا الشيخ مسلكاً في الأدب والشعر، وهل قرأ شعر وأدب المعري كله أم أنه أطلق حكمه من خلال أبيات معدودة دون النظر الى بعض المتدينين الذين غرروا بالمجتمع ولم يفهموا أن الدين عقيدة وعبادة وسلوك، ولعله لم يدر لماذا كُتبت هذه الأبيات ، إن صحّت نسبتها له ،وما هي الظروف المحيطة بكتابتها ،والحالة النفسية التي كان يعيشها المعري أثناء الكتابة لقصائده .

إلا أن بعض الكتاب كان أقل وطأة من غيره في نقل مثل هذه الروايات ولم يعلق عليها تأييداً أو رفضاً مثل ابن الانباري (ت ٥٧٧هـ) إذ كان يقول قبل ذكر الرواية يُحكى عنه، وفي نهايتها والله اعلم.(١٢٦)

ولم تلبث مثل هذه الاتهامات والأحكام التي يغلب عليها التعصب أن خفّت حدّتها بتقدم الزمان ، لتحل محلها آراء تحتكم العقل والإدراك في فهم أدب

المعري وحاول بعض الأدباء إنصاف المعري ودفع الظلم عنه وإظهار الوجه الحسن له ولأدبه ، حيث جاء عن مسالك الأبصار أنه جمع خصالاً على أحسن شكل وأجمل انسجام، وأخذ من الشعر خلاصته ،ومن الفلسفة صفوتها ،ومن علوم اللغة مالم يجمع لأحد غيره من العلماء والأدباء ،وقرأ القرآن الكريم بالروايات على بعض أهل العلم بالقراءة، وسمع الحديث ورواه وخرّج سبعة أجزاء منه.(١٢٧)

كما روي عنه درايته بالفلك ورصد الكواكب(١٢٨)، فيما غالى بعضهم في ذكر الروايات التي جعلت المعري ولياً من أولياء الله وقد رُفعت عنه الحجب ، منها ما روي في تاريخ الاسلام للذهبي (ت٧٤٨هـ) عن القاضي السروجي عن القاضي أبي الفتح من أنه كان يبكي ويصيح ويطرح وجهه على الأرض زماناً متأثراً ببعض آيات القرآن الكريم التي يقرأها.(١٢٩)

أو ما ورد في مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) من أن الوزير محمود بن صالح صاحب حلب بعث خمسين فارساً ليحملوا المعري إليه ، بعدما وشاه من وشاه بالزندقة ، فما كان من المعري إلا أن قام فاغتسل وصلّى إلى نصف الليل ودعى ربه بدعاء ثم بكلمات لا تُفهم ، فوقعت الدار على الخمسين فارساً ، ثم وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير.(١٣٠)

إن هذا التناقض في الروايات بين المدح والقدح يثير الشكوك حول صحتها وما اعتلاها من مبالغة واضحة.

فيما كان بعض الكتاب أكثر إنصافاً وعدلاً ومنهم ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) الذي ألّف كتاب العدل والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ، قال فيه أن أقولاً وضعت على لسان المعري ، كما حُمل كلامه على غير المعنى الذي قصده وذكر أن ما يقارب من خمسين رجلاً كلهم تتلمذ لأبي العلاء ،وهم من أهل المعرة ومن بلدان أخرى وفيهم أئمة وخطباء وعلماء وحفّاظ ثقات ،وأنه أتقن الشعر واللغة ، إذ يقول في شعر المتنبي (ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو بمعناها فيجيء حسناً مثلها)(١٣١) ، لذلك كان المعري يقول لتلاميذه (إذا أردت الدراية فخذ عني ولا تتعدَّ ،وإذا قصدت الرواية فعليك بما عند غيري).(١٣٢)

وقال ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) عن كتاب ضوء السقط أنه يعبر عن صحة اعتقاده ، والحكم بصحة إسلامه ، فقد ضمنه ما يثلج الصدر ويلذ السمع ،ويُقرّ العين، ويسرّ القلب ،ويثبت القدم من تعظيم رسول الله خير بريته ، والتقرب الى الله بمدائح الأشراف من ذريته ،وتبجيل الصحابة والرضا عنهم ، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير ،وتضليل من أنكر المعاد والترغيب في أذكار الله والأوراد.ومن الذين اهتموا بشعر المعري شرحاً وتفسيراً ابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ) بعدما رأى العبث في تفسير وتوجيه شعره غير الوجهة التي أراد (١٣٣).

ويبدو أن المعري حاول دفع هذه التهم عن نفسه ،وبيان معاني بعض أشعاره التي التبس فهمها على متلقيها ، فألّف كتاب زجر النابح الذي رأى فيه بعض الباحثين أنه جاء رداً على كتاب رجم الغريت، حيث كان يذكر التهمة الموجهة إليه ويعمد إلى تبرئة نفسه مما نُسب إليه بأسلوب هادئ مع محاولة رد آراء الخصم بسخرية وعنف حيناً آخر(١٣٤) مثل قوله :

زوجه إبراهيم سارت إلى
مقام ابراهيم في نذْرها
عصته في ذاك ولم تعتذر
وجرمها أيسر من عذرها
تهذرُ في النّسك وأوصافه
وصمْتها أبلغ من هذرها(١٣٥)

فيذكر امرأة اسم زوجها ابراهيم ، وقد طلب منها عدم الخروج من الدار، فعصته وخرجت لزيارة مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) ، إلاّ أن قوله تم تفسيره على غير وجه وسيق الى معنى آخر للطعن في عقيدة المعري ، فقيل إن المرأة يراد بها زوجة إبراهيم الخليل، وقد ردّ المعري على ذلك بقوله (أدّعى المموه أن زوجة ابراهيم معنيّ بها زوجة ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وعلى أزواجه ، فأما العالم الذين يسمعون كلام هذا الانسان ثمّ لا ينكرون عليه فمؤلف (لزوم ما لا يلزم) بينهم غريب مطرح قد يئس من النصرة ، ولكنه ينتظر النصرة من الله سبحانه وتعالى بالوعد في الآية **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ**(١٣٦))(١٣٧).

وقوله :

ودار ساكن وحياةُ قوم
كجسر فوقُه اتَّصل العبورُ
يُعَطّل منزلٌ ويزار قبرٌ
وما تبقى الديار ولا القبور(١٣٨)

ثم يعقّب قائلاً (أعوذ بالله من زمان تجوز فيه دعوى مموه أن هذا البيت دليل على الإلحاد ..... فقوله "ودار ساكن" دليل على إقرار الدار الأولى والدار الآخرة . أفما رجل له لب يفهم من جهل هذا المقدار .... ولكن إنما يغضب لهذه الأشياء المسلمون ، وقد اغترب الاسلام في هذا الاوان)(١٣٩).

وقوله :

آليت لا ينفكُّ جسمي من أذى
حتّى يعود إلى قديم العنصر(١٤٠)

ويعلق على ذلك بقوله : (وادعاؤه أن هذا القول كقول الفلاسفة بهتان مبين ؛ لأن "العنصر" يتكلم به جميع العرب .... وكيف يستجيز القائل أن يدعي أن قوله (قديم العنصر) يريد به مذهب الفلاسفة ،ويحكم بذلك حكماً يزعم أنه موجب للردّة والميل عن المحجة)(١٤١).

وقوله :

في كلِّ أمرك تقليدٌ رضيتَ به
حتى مقالك ربّي : واحد أحدُ
وقد أُمرْنا بفكْرٍ في بدائعه

وإن تفكّر فيه معشرٌ لحدوا[١٤٢]

ويقول المعري عن البيتين (هذا لغز ، واللغز يتردد في كلام هذا المتهم كثيراً)[١٤٣] ، ونُقل عنه أنه قال : (لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوقر على تسبيح الله وتحميده ، إلاّ أن أضطرّ إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء تولّى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله توفيقه، ألزمني بذلك حقوقاً جمّة ... وهي على ضروب مختلفة ، فمنها ما هو في الزهد والعظات والتمجيد .... فبلغت خمسة وخمسون مصنفاً في نحو أربعة آلاف ومائة وعشرين كراسة)[١٤٤].

أما المحدثون فقد نظروا الى شعر وأدب المعري من جوانب عديدة، لذلك تباينت آراؤهم ،وإن كانت محاولة الإنصاف والدراسة المتأنية هدفاً للجميع ، إلاّ أن أثر الآراء القديمة لم يتم محوه كاملاً بل أن بعضاً من صداه وجد أثره عند بعضهم.

فالدكتور طه حسين وصفه بأنه رجل لا يعرف إلاّ الحق والصراحة ،ولا يطمئن إلى ما مضت به سنة الناس من نفاق ومداجاة لا يغني في منادمة الملوك غناء.[١٤٥]

ووصف عزلته بالايجابية ،وأنه كان متصل النفس بالناس ، وأن النقد الاجتماعي والسياسي في اللزوميات يبيّن أن المعري عاش مع الناس وتأثر بما تأثروا ،وأنكر من أمرهم ماأنكر ،واتخذ من ذلك مادة لفلسفته وشعره.

ورأى أن لشعره خاصية هي إنك تقرأ القصيدة من شعره فتفهم ألفاظها المفردة ولا تكاد تفهم معانيها .[١٤٦]

أما أمين الخولي فقد أدلى بدلوه لكنه احتار بشعره وخرج بأن (التناقض ظاهرة عامة شاملة في آراء أبي العلاء جميعاً).[١٤٧]

وذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن المعري مال إلى الاغراب اللغوي ، وأنه كان يختار لنفسه أسلوباً معقداً تعقيداً شديداً ، يميل الى استعمال اللفظ الغريب وما يطوي فيه من أمثال وكلمات رمزية ، ولا سيما في كتاب الفصول والغايات ، الذي يرى فيه أنه لم يقصد الالحاد ولا الزندقة ولا معارضة القرآن ، وأن الكتاب ينصب كله في التمجيد والتحميد والثناء على الله ، وأنك لتشعر بروح رجل مؤمن مبالغ في إيمانه يخاف ربه ويخشاه[١٤٨] ،وقوله هذا يتشابه مع قول ابن سنان الخفاجي (إن العاقل إذا تأملها علم أنها بعيدة عن المعارضة ،و قد يكون السبب أن الناس واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة ، أنهم رأوه يُسمي كتابه باسم الفصول والغايات في محاذات السور والآيات ، فظنوا أنه يقصد بذلك إلى المعارضة في الأسلوب ،وهو يقصد إلى أن هذه الفصول محاذية للقرآن من حيث ما فيها من تسبيح وحمد وتمجيد وثناء على الله سبحانه وتعالى)[١٤٩].

ورأى الدكتور شوقي ضيف أيضاً أن موضوع اللزوميات وما فيها من تشاؤم ودعوة الى الزهد في الحياة، والحكم والعظات ليس جديداً، إنما وجد في الأدب العربي ،ولا سيما عند أبي العتاهية والمتنبي ، إلاّ أن المعري وسّعه وأخرجه في ديوان خاص وأنه أراد أن يخرجها على شكل خطب وعظٍ وإرشاد.[١٥٠]

أما الدكتور علي شلق فقد تأرجح بين رأيين متناقضين ، مال في أولهما الى رأي الخولي حينما ادعى أن المعري لا يخلو من التناقض في رأيه ،ولكن في الوقت نفسه حاول الاعتدال والتوسط فرأى ثانية أنه على الرغم من ذلك يبقى إنساناً مثلاً لم تدنّسه الدنيا ما دنست غيره من البشر.[١٥١]

فيما حاول باحث آخر أن يكون من أكثر المحدثين عمقاً وإنصافاً ودقة ، فكان أصوبهم إتجاهاً في طريق فهم وكشف مجاهيل نصوص المعري الشعرية، ورأى أن اللزوميات نص شعري يعبر عن بنية ذهنية أكثر مما يعبر عن ذات فردية ، وأن لمتنه الأدبي علاقة بالوجود الانساني فهو خطاب موجه نحو كشف الانسان والعالم ،ومن ثم فوظيفته فهم الحياة بصورة أفضل، وأن اللزوميات نص تتحكم في بنيته أسلوبيتان متباينتان تقوم إحداهما على السهولة والبساطة وهي التي كان يتوجه بها إلى عامة المتلقين إذ لا لبس فيها ولا غموض ،وهناك نصوص أخرى في بنيتها تعقيد وتشاكل معنوي لاعتمادها على خصائص أسلوبية قوامها اللغز والإيهام والتلميح مما يستعصي فهمها على العامة[١٥٢].

والذي يبدو لنا أن المعري كان زاهداً ، ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الدقيق للفلسفة؛ لأنه لم يَخُضْ في الفلسفة اليونانية وموضوعاتها.

وأنه أنكر وجنّب نفسه تهمة الغوص في الفلسفة عندما رفض أدراج مفردات صاغها في شعره ضمن المصطلحات الفلسفية.

وإنه كان إنساناً عبقريا[١٥٣] مفكراً محباً للحكمة ، يتحسس بمحيطه الخارجي ، ويتعمق بنظرته للأشياء، وتأثر بالفلسفة كغيره من الشعراء أمثال أبي نؤاس والمتنبي ، لكنه لم يتعمقها إنما مسها من أطرافها ودار حول محيطها، وكان فوق الدنيا ولم يكن تحتها، فعرّاها ولم تعريه.

اللغز والإيهام في شعره

إن الثقافة العالية والمعرفة التي تكونت لدى المعرّي نتيجة سعة إطلاعه على العلوم والمعارف بأنواعها، أهَّلتْه إلى أن يمتلك ناصية اللغة، ويتمكن من مفرداتها ، لذلك فهو يكتب بلغة عالية وفي اغلب الاحيان مجازية او تلميحية أو إيحائية أو إيهامية؛ لأن الشعر عنده رؤية ، والرؤية وصف وتعبير لكنها ذات دلالة أعمق تمزج بين الظاهر والباطن في بنية لغوية أكثر تعقيداً تحتاج الى قارئ له القدرة على التخيل والتأويل ، والغور في أعماق النص للوصول الى المعاني والدلالات التي أراد الشاعر أن يُشير إليها؛ لأن الشعراء لا يستعملون لغة اصطلاحية للتعبير عن عالم واقعي ، وإنما يستعملون لغة تخيلية ذات طبيعة مراوغة وإيهامية[١٥٤] ، لذلك فإننا نجانب الصواب إذا جعلنا العمل الادبي ولاسيما الشعر وثيقة مطابقة لمؤلفها

، وقد عبَّر عن هذه الفكرة جيروم ستولنيتر بأن الحالة النفسية للفنان قد تختلف عن تلك التي تتجسد في العمل الادبي ، ورأى أن من أخطر الامور أن ننسب الى الانسان ما نجده في العمل مالم تكن لدينا شواهد مستقلة عن الفنان بوسائل أخرى غير الحالة الفنية كالشواهد المستمدة من واقع حياته.(١٥٥) لذلك فإن ما وُجّه من تهم للمعري - نتيجة لعدم تفهم شعره - تعد باطلة لا مسوغ لها ؛ لأن واقع حياته الملتزم بالعبادة والزهد ينفي ما أرادوا إثباته تجوّزاً من إلحاد أو زندقة.

كما أن الادب هو مجموعة من الاهواء والميول والغرائز والانطباعات قد تخضع لمزاج الاديب في اختفائها او ظهورها (فالشاعر حين يكون هادئ الشعور متزن المزاج تشي صورة بيقظة حسّية وشعورية وذوق جمالي رفيع... وهو على العكس من ذلك حين ينقلب مزاجه وتشتد عليه طيرته ترى المسافة قريبة من حالته (الطيرة) وحالته النفسية ... فقد بلغ من توتره الشعوري واضطرابه النفسي أن تراه يجمع بين الخواطر المشتتة والمعاني المتباعدة)(١٥٦).

ويرى سارتر أن الشعراء (أناس يرفضون استخدام اللغة ، ولما كان البحث عن الحقيقية يتم باللغة وعن طريقها باعتبارها نوعاً من الأداة، لذلك ينبغي أن لا نعتقد أنهم يهدفون إلى تمييز ما هو حقيقي أو إلى عرضه)(١٥٧).

وإن اللغة التي يكتب بها الأديب، هي أداة تجتمع فيها تجاربه وانطباعاته فهو لا يعبّر عن شخصية واحدة أو محددة ضمن العمل الأدبي، فقد تغيب هذه التجارب والانطباعات، ولا تجد مكانها داخل التجربة الأدبية، لتحل محلّها تجارب أخرى لا تعكس شخصية الأديب، لذلك فإن بعض أشعاره فُسّرت على غير الوجه الذي قصده أو رام إليه وإن كثيراً من معانيه خفيت على متلقيه، ومن ثم أساؤا فهمه وتأويله جهلاً أو قصد الإساءة والتشويه ، فالمعري كان مؤمناً موحداً فهم الدين الاسلامي ، لكنه وجّه نقده للمجتمع الذي لم يجسد المعاني الاسلامية على حقيقتها ، بل إنه وجد أن صوت الظلم ظلّ يصدح عالياً ، فعاب المجتمعات التي لم تفهم الرسالات السماوية الا ان قوله فُسّر على غير ما أراد إذ كررت المصادر قوله :

أتى عيسى فبطل شرع موسى
وجاء محمد بصلاة خمسِ
وقالوا لا نبيّ بعد هذا
فضلّ القوم بين غدٍ و أمسِ
ومهما عشت في دنياك هذي
فما تُخْليك من قمرٍ وشمسِ
إذا قلت المحال رفعت صوتي
وإن قلت الصحيح أطلت همسي(١٥٨)

ويبدو من خلال الاختلاف عن رواية الديوان أن مثل هذه الاشعار نقلت سماعا، لذلك كثر فيها الشعر المنحول والمنسوب للمعري ، حيث أُتّخذ من هذا التلميح في شعره وسيلة لنسج الأشعار عن لسانه ،والتي تشكك في عقيدته ، فتناقلتها المصادر تباعاً نحو :

فلا تحسب مقال الرسل حقا
ولكن قول زورٍ سطّروه
وكان الناسُ في عيشٍ رغيدٍ
فجاؤوا بالمحال فكدّروه(١٥٩)

والبيتان مما لم يروَ في الديوانين ، وإنها لا تعكس اسلوب المعري الذي يغلب عليه والإيهام واللغز، إذ تبدو السطحية والتقريرية جليّة في النص.

كما ويبدو أن الذي إتهمه بانكار النبوءات وجحد الرسل او نقل ذلك عنه لو اطلع على قوله:

يا ابن الذي بلسانه وبيانه
هُديَ الأنامُ ونزّل التنزيل
عن فضله نطق الكتابُ وبشرتْ
وبقدومه التوراة والانجيل(١٦٠)

أو قوله :

أيدفع معجزات الرُّسل قومٌ
وفيك وفي بديهتك اعتبار(١٦١)

لأتّخذ منه عبرة، وامعن النظر في اشعاره مرة اخرى ، وما لفَّق اليه تهماً باطلة او نقل ما انتحل من الاشعار ، مما لم يذكر في ديوانيه مثل :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ
وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئٍ
رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا(١٦٢)

وإن هذا التناقض الذي كان يراه المعري في ميول الناس وطباعهم مصدره حب الدنيا والانقياد لها ، ويشير إلى ذلك بقوله :

نحن البريّة أمسى كلنا دنفاً
يحب دنياه حبّاً فوق ما يجب(١٦٣)

لذلك نراه الناصح والمرشد والموجه حيناً، وفي أحايين أخرى يسلم أمره الى الله مدبر الكون ، فيقول :

رددْتُ الى مليك الحقِّ أمري
فلم أسألْ متى يقع الكسوف
فكم سلم الجهول من المنايا
وعوجل بالحمام الفيلسوف(١٦٤)

وعندما رأى أن المجتمعات كلها لا تخلو من المنافقين الذين ابتعدوا عن الفضيلة والعدالة التي أمرنا إليها الخالق سبحانه وتعالى وذلك بميلهم نحو أهوائهم ورغباتهم ، راح يعيب بعض أصحاب هذه الديانات الذي ضلوا وحاولوا إضلال غيرهم ، فقال :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مضللة(١٦٥)

إلاّ إن الإساءة في فهم هذا البيت ، وتأويله على غير الوجه الذي أراد ، وعدم الاشارة الى التلميح فيه ، جعلت من المعري عرضة للاتهام بالاساءة الى الاديان،و هو ما لم يشر إليه المعري.

ويرى انه وعلى الرغم من ان الكتب المنزلة تدعو الى الهداية الا ان كل جيل لا يخلو من الضالين الذين لم يتبعوا الدين المنزّل إذ يقول:

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقصّ وفر
قان ينصُّ وتوراة وإنجيلُ
في كل جيل أباطيل ملفقة
فهل تفرّد يوماً بالهدى جيلُ(١٦٦)

ومما يدل حقاً على أنه كان يعيب الضالين والمنافقين،ولم يجرؤ على مس الدين بما يخدش إيمانه ، قوله :

مجوسيةٌ وحنيفيةٌ
ونصرانيةٌ ويهوديــة
نفوسٌ تُخالف أديانها
وليست من الموت بمفدية(١٦٧)

ومن شدة بغضه المجتمع في بعده عن الهداية ، وعدم فهم دعوة الأنبياء والانقياد لهم في كل الأوقات ، نراه يردد نقده للناس ، فيقول مرة أخرى:

ما أسلم المسلمون شرهُم
ولا يهودٌ لتوبة هادوا
ولا النصارى لدينهم نصروا
وكُلّهم لي بذاك أشهدُ(١٦٨)

وقوله :

مُتمجسون ومسلمون ومعشر
متنصرون و هائدون رسائس
وبيوت نيران تُزارُ تعبــداً
ومساجد معمورة و كنائس
والصابئون يُعظّمون كواكباً
وطباع كلّ في الشرور حبائس
أنّى ينال الديانة ســؤدداً
ومآرب الرجل الشريف خسائس(١٦٩)

وهو في أقواله كلها يُشير إلى طباع الشر في الناس ، وعدم الهداية الى الخير والمعروف الذي دعانا إليه الخالق سبحانه وتعالى، ولم يمس الأديان بسوء ، كما أنّهم بذلك وأتّخذ من هذه الأبيات حُجّة وذريعة للشك والطعن في عقيدته ، وأنه يرى أن الشر والكذب والغدر،وكل منكر رذيلة أياً كان مصدره.

ويبدو أنه كلما ازداد توتره النفسي من شدة غيضه من الناس الذين لم يجعلوا ممن سبقهم عبرة لهم ،ولم يخضعوا أو يطبقوا الشرائع السماوية على حقيقتها ، ولم يتدبروا ، ولم يتفكروا ،وإنما وجد الأقوام جُبلت على المعاصي ، والسير في طريق الظلالة ولم تُعد هناك حرمة حتى للبيت الحرام الذي هو قبلة المسلمين إذ أن الظلم والجحود لم يقتصر على زمانه ، وإنما اتصفت به عصور أخرى سبقته، نراه يزداد جرأة في نقدهم ، إذ يقول :

وهيهات البرية في ضلال
وقد فطن اللبيب لما اعتــراها
تقدَّم صاحب التوراة موسى
وأوقع في الخسار من اقتراها
وقال رجاله وحيُ أتــاه
وقال الظالمون بل افتــراها
وما سيرى إلى أحجار بيت
كؤوس الخمر تشرب في ذراها(١٧٠)

وتفضي به هذه الضلالة عند الناس الذين ابتعدوا عن شرائع الله بسعيهم الى الظلم والفساد في كل الأزمان ، إلى اليأس والعزلة ؛لأنه يرى أنه على الرغم من تعدد الأديان والشرائع السماوية إلا أن بعض الناس أسوياء في عدم التزامهم بشرائع الله سبحانه وفي الظلم وعدم الهداية وحب الدنيا ، فيقول :

قد ترامتْ الى الفساد البرايا
واستوتْ في الضَّلالة الأديان(١٧١)

إذ يبدو أنه مال الى المجاز في هذا البيت،وأنه قصد أهل الأديان ، إذ حذف المضاف وقام المضاف إليه مقامه متأثراً بإسلوب القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾(١٧٢) أي أهل القرية.

وقد بيّنا أن أسلوب المجاز واللغز والتلميح هو ما ميّز بعض أشعاره، مثل قوله :

فلا تكُ زيراً للنساء وإن تملْ
لهن فلا تأذن لزير ولا صنــج
ولا تدْنُ للصهباء بنتاً لأبيض
ولا تقرب الحمراء من ولد الزّنج(١٧٣)

فالزير في البيت الأول هو الذي يكثر زيارة النساء ، والزير الثانية زير الغناء،وهو وتر من أوتار العود ، والصنج آلة من آلات اللهو والغناء.

أما الصهباء فهي الخمر ،والمعتصرة من العنب الأبيض هي التي وصفها ببنت الأبيض والمعتصرة من العنب الأسود هي التي سماها الحمراء ، فنرى أنه نهى عن المنكرات التي حرّمها الدين الإسلامي ، ولكن بأسلوب فني يعبر عن يقظة حسّية وشعورية وذوق جمالي رفيع يعكس إتزانه وهدوء نفسه أثناء نظمها .

وقوله :

وكم من عينٍ تؤمِّل أن تراني
وتفقدُ عند رُؤيَتي السوادا(١٧٤)

إذ أنه أراد أن يعبّر عن جهل الناس به ،وعدم معرفتهم حقيقته ، لذلك فإن العين التي تؤمل أن تراه إذا رأته لم تعرفه حقيقة المعرفة ،وخفي عليها كأنها فقدت سوادها ولم تره.

وقوله :

واحْذر دُعاءَ ظليم في نعامته
فرُبّ دعوة داع تخْرقُ الحُجُبا(١٧٥)

فقد تأثر بقول رسول الله ﷺ : **((واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))**(١٧٦).

لكنها جاءت بطريقة اللغز ، إذ أنه قصد بالظليم المظلوم ، أما نعامته ، فهي ظلمة الليل ،وهو أفضل أوقات التهجد والمناجاة لرب العالمين ، لكنه لما ذكر الظليم الذي يوهم بأنه فرخ النعام ، ذكر النعامة تتميماً للإيهام.

أما اللغز في قوله :

خبر الحياة شرورها وسرورها
من عاش عدّة أوّل المتقارب(١٧٧)

فربما يصعب على كثيرين فهمه؛لأنه ذكر عدد سنين العمر بطريقة رياضية من خلال البحر المتقارب، إذ أن المتقارب مبني من فعولن ثماني مرات، وعدد أحرف فعولن خمسة أحرف، فإذا تكررت هذه الأحرف ثماني مرات صار العدد أربعين ، وفي ذلك تلميح إلى سنّ الشخصية التي تتحدث عنها القصيدة والتي ينتمي إليها هذا البيت.(٢٧٨)

إذا كان المعري يكتب بهذه العلمية وهذا العمق في التفكير ودرايته التامة بحقيقة الدين والفقه، وتمكنه من اللغة وناصيتها،وهذا التوقد في العقل والبديهية والفطنة، فهل يصحّ أن تُفسر أشعاره على ظاهرها. ففي محاولة فهم وتفسير شخصيته بمرونة وعلمية، ربما تُفسر بعض أشعاره بطريقة أخرى، تذهب بنا إلى حقيقة ما قصده أو ما لم يستطع قوله جهاراً، كما ويبدو أنه لم يكتب لجيله فقط، إنما شكل التاريخ والأجيال بعضاً من همه ، في محاولة منه لإيصال علمه وشعره وواقع العصر الذي عاشه.

ومما يؤيد ذلك قول البطليوسي إن المعري (سلك في شعره مسلكاً شعرياً يختلف عن مسلك الشعراء ، وضمّنه نكتاً من المذاهب والآراء، وأراد أن يُريَ الناس معرفته بالأخبار والأنساب ، وتصرفه في جميع أنواع الآداب ،ولم يقتصر على ذكر مذاهب المتشرعين حتى خلطها بمذاهب المتفلسفين، فتارة يخرج ذلك مخرج من يرد عليهم ، وتارة يخرجه مخرج من يميل إليهم، وربما صرح بالشيء تصريحاً ، وربما لوّح به تلويحاً فمن تعاطى تفسير كلامه وشعره وجهل هذا من أمره بَعُدَ عن معرفة مايومي إليه،وإن ظن أنه قد عثر عليه ،ولهذا لا يُفسر شعره حق تفسيره إلا من له تصرف في أنواع العلوم، ومشاركة في الحديث منها والقديم، فلم يكن بدّ من ذكر المعاني التي أومأ إليها وحام فكره عليها)[١٧٩].

فقد كان العقل عنده هو الإمام في فهم المحسوسات وبعض الغيبيات، ويرى أن الإتباع بوعي وفهم أفضل وأكثر رقيّاً من الإتباع فطرياً والاكتفاء بالنقل فيقول:

ولا تصغوا إلى أخبار قوم
يصدّق مينها العقل الأرك[١٨٠]

إذ لا بد من السند والدليل في نقل الأخبار والروايات .

وإن الجرأة التي يمتلكها المعري كانت سبباً لما لاقى من نقد وتُهم ، ولا سيما ممن لم يفهمه ، في مثل قوله :

وينفر عقلي مغضباً إن تركته
سُدى وآتبعت الشافعيّ ومالكا[١٨١]

فهو يدعو الى التفكر والتدبر وإدراك وفهم المذهب الذي يتبعه المسلم يقيناً لا تسليماً فقط.

أما التدبر في خلق السماوات والأرض وما فيهن والليل والنهار والكواكب فذلك من العبادة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[١٨٢] .

لذلك فهو يدعو العلماء الى العقل والتفكير بالكون وخالقه ليزداد المؤمن إيماناً ويقيناً بوحدانية الله جل جلاله ، إذ يقول :

قلتم لنا خالقٌ حكيمٌ
قلنا صدقتم كذا نقولُ
زعمتموه بلا مكان
ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبئٌ
معناه ليست لنا عقولُ[١٨٣]

إذ أن استجابته لدعوة القرآن الكريم في التفكر والتدبر زادته إيماناً ويقيناً بحكمة الخالق عز وجل ،وأنه أيقن ذلك ليس بالاتباع فقط، إنما بالتدبر في الكون والسماوات والأرض ، إذ يقول :

أثبتت لي خالقاً حكيماً
ولست من مَعْشرٍ نفاه[١٨٤]

أما قوله :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت
بقدرة من مليك غير منتقل[١٨٥]

والذي اتهم فيه بأنه تبع الفلاسفة باثبات أن الله سبحانه وتعالى ساكن، فهذا يتناقض مع قول المعري بأن الله سبحانه وتعالى خالق الكون ،وهو عين الوجود وكل شيء تحت سطوته وهيمنته ، فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾[١٨٦] ، فكيف وأين ينتقل والكون أجمعه بيده.

وعلى الرغم من ذلك فإن المعري يدرك حدود العقل ، إذ أنه يؤمن بأن العقل إذا تقاطع مع الشرع يجب اتباع الشرع ،وأن الذات الإلهية فوق الإدراك فيعترف بروح المؤمن العارف بعجزه وكل المخلوقات عن إدراك ذات الله ، فهو يحذر الأجيال بعقل العالم المفكر من عدم السخط ، لأن الله سبحانه وتعالى يدرك كل شيء ولا تدركه الأبصار فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[١٨٧] ، لذلك يقول:

أما الإله فأمرٌ لست مدركهُ
فاحذر لجيلك فوق الأرض إسخاطا[١٨٨]

إلا أنه لم يسلم من الذين أرادوا النيل منه ومن عقيدته متخذين من هذا البيت مثلاً وشاهداً ، إلا أنه كان يراه متأتياً من جهلهم وربما نزّه نفسه عن الرد على هؤلاء لإثبات جهلهم واكتفى بترديد قوله :

ولما رأيتُ الجهلَ في الناس فاشياً
تجاهلتُ حتّى ظُنّ أني جاهـل
فوا عجباً كم يدَّعي الفضل ناقصُ
ووا أسفاً كم يُظهر النقص فاضل[١٨٩]

الهوامش

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء المعري ، ص٢٠، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣م، ط٦ والنص من أنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي ، ت ٦٤٦هـ ، وتاريخ الاسلام للذهبي ، ت ٧٨٤هـ .

(٢) ينظر :تعريف القدماء لآبي العلاء ، ص١٣، جمعه وحققه لجنة من رجال وزارة المعارف بإشراف الدكتور طه حسين ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٦٣هـ – ١٩٤٤م،والنص من تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي ، ت ٤٦٣هـ.

(٣) ينظر : تعريف القدماء ، ص١٣، ٢٢٥، والنص من تتمة اليتيمة للثعالبي ، ت ٤٢٩هـ ، ص٤.

(٤) ينظر : المدخل الى نظرية النقد النفسي – سيكلوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد نموذجاً– زين الدين المختاري ، ص٣٣، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨، دمشق .

(٥) ينظر : الايجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والاسلام – الدكتور علي الشعبي ، ص١٥، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٢، ط١.

(٦) التفسير النفسي للأدب – الدكتور عز الدين اسماعيل ، ص٤٤، دار العودة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٢، د. ط. ، وينظر المدخل الى النقد النفسي ، ص٣٠.

(٧) اللزوميات – لأبي العلاء المعري ، ١٦٧/١، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(٨) ينظر : تعريف القدماء لأبي العلاء ، ص١٦،والنص من نزهة الألبا في طبقات الأدبا– لابن الانباري ، ت ٥٧٧هـ ،والاصطبل : هو الاعمى بلغة اهل الشام ، وعلي بن عيسى هو : علي بن عيسى بن صالح الربعي أبو الحسن الزهري ، أحد أئمة النحويين وحذاقهم ، أخذ عن السيرافي والفارسي، وكان يحفظ كثيراً من أشعار العرب مما لم يكن غيره يقوم به الا أن جنونه كان يحول دون التمكن من الأخذ عنه ولد سنة ٣٢٨هـ وتوفي ٤٢٠هـ . ينظر : معجم الأدباء ، ياقوت حموي (ت ٦٢٦هـ) ، ٢٨٣/٥، دار المشرق – بيروت / د.ط. ، د. ت .

(٩) سورة الاسراء ، آية ٧٢.

(١٠) تعريف القدماء ص٦٣،والنص من انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي وقد تكررت الرواية في مصادر اخرى بطرق مختلفة ،والمنازي هو : أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي الشاعر ، منسوب الى مناز جرد من بلاد أرمينية توفي بميافارقين سنة ٤٣٧هـ.

(١١) سورة الحجرات ، آية ١١.

(١٢) صحيح البخاري ، للعلامة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، (ت٢٥٦هـ) ، ١١/١ ، متفق عليه ، دار الفكر ، بيروت، – بغداد – ، د. ط. ، ١٩٨٦م.

(١٣) م.ن. ١٢٣/١.

(١٤) تعريف القدماء لأبي العلاء ، ص٤٢، والنص من تتمة اليتيمة للثعالبي.

(١٥) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص١٩٠، ١٩٤، الطبعة السابعة، دار المعارف – مصر، ١٩٦٩م.

(١٦) ينظر : مقدمة رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ص١٣، تحقيق الدكتور علي شلق ، دار القلم ، بيروت – لبنان، ١٩٧٥، د. ط.

(١٧) ينظر : تاريخ آداب اللغة ٣٠٣/٢، طبعة جديدة راجعها وعلق عليها د. شوقي ضيف ، دار الهلال ، د. ت. د. ط.

(١٨) السلوك هو : ذلك النشاط الذي يصدر من الكائن الحي نتيجة لعلاقته بظروف بيئة معينة والذي يتمثل بالتالي في محاولاته المتكررة للتعديل والتغيير في هذه الظروف حتى يتناسب مع مقتضيات حياته . ينظر : المنهج العلمي وتفسير السلوك ، د. محمد عماد الدين اسماعيل ، ص١٨٩، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.

(١٩) ينظر : المدخل الى علم النفس ، د. هاشم جاسم السامرائي ، ص١١٦، مكتبة الشرق الجديد ، بغداد ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م.

(٢٠) فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره ، حامد عبد القادر ، ص٦٨، ٧٠، ٨٦، لجنة البيان العربي ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ، ١٩٥٠م.

(٢١) ينظر : تعريف القدماء ، ص٢٦٩، والنص من الوافي بالوفيات والبيتان مما لم يروَ في الديوانين لكنهما ذكرا مع الرواية في أغلب المصادر الاخرى مثل ارشاد الأريب ونكت الهميان للصفدي وبغية الوعاة للسيوطي.

(٢٢) اللزوميات ، ١١/٢.

(٢٣) م. ن. ٤٤/١.

(٢٤) رياض الصالحين ، تأليف الامام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، (ت ٦٧٦هـ) ، ص٢٤٨، متفق عليه ، حققه : عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط١٠، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م.

(٢٥) اللزوميات ٥٨/١.

(٢٦) م. ن. ٣٤٤/٢.

(٢٧) سقط الزند ١١٠/١.

(٢٨) سورة الاعراف ، الآية ١٨٥.

(٢٩) سورة العنكبوت ، الآية ٢٠.

(٣٠) سورة الرعد ، آية ٣.

(٣١) سورة الرعد ، آية ٤١.

(٣٢) أبو العلاء عقيدة ومرجعية – دراسة في ديوان اللزوميات ، محمد خالد عمر ، ص٢٦، (بحث) ، الموقف الأدبي العدد ٣٩٩، تموز ٢٠٠٤، منشورات اتحاد الادباء العرب.

(٣٣) اللزوميات ٥٥/١.

(٣٤) م.ن ١٤٥/٢.

(٣٥) م.ن ٤٤٣/٢.

(٣٦) م . ن ٤١/١.

(٣٧) م. ن ٤٨٥/١ طبعة دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨١هـ – ١٩٦١م .

(٣٨) سورة البقرة ، الآية ١٧٧.

(٣٩) رياض الصالحين ، ص٩٢، رواه مسلم .

(٤٠) اللزوميات ١/ ٤٣٥ طبعة دار صادر.

(٤١) م.ن ٧٢/١.

(٤٢) م. ن ٢٦٩/١.

(٤٣) رياض الصالحين ص٢٠ متفق عليه.

(٤٤) اللزوميات ٣٤٩/٢.

(٤٥) م. ن ٢٥١/١.

(٤٦) م. ن ٢/٩٧.
(٤٧) م. ن ٢/٢٧٧.
(٤٨) م. ن ١/١٤٥.
(٤٩) سورة البقرة ، الآية ٢٦٢.
(٥٠) سورة البقرة ، الآية ٢٨١.
(٥١) اللزوميات ٢/١٦٢.
(٥٢) اللزوميات ٢/٢١٣.
(٥٣) اللزوميات ١/٦١.
(٥٤) اللزوميات ١/٧٤.
(٥٥) رياض الصالحين ص٤٣٣، رواه مسلم .
(٥٦) اللزوميات ١/٨٥.
(٥٧) اللزوميات ٢/٥٣.
(٥٨) سقط الزند – ابو العلاء المعري ، دار صادر – بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص٥–٦، وورد في بعض الطبعات امتحان السوس.
(٥٩) تعريف القدماء ص٣٣، والنص من أنباه الرواة على انباه النحاة للقفطي (ت ٦٤٦هـ) ، وأبو طاهر هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني المعروف بالحافظ السلفي ولد سنة ٤٧٢هـ واستوطن في الاسكندرية ، ينظر التاريخ في الوفيات ٥٧٦.
(٦٠) بواسطة تعريف القدماء ص٢١٧.
(٦١) تعريف القدماء ص١٢٥ نقلاً عن ارشاد الأريب الى معرفة الأديب.
(٦٢) تعريف القدماء ص٣٧، والنص من أنباه النحاة ١/٤٢.
(٦٣) اللزوميات ١/١٨٤.
(٦٤) م. ن ٢/١٧٦.
(٦٥) سورة الطلاق ، الآية ٢–٣.
(٦٦) اللزوميات ٢/٦.
(٦٧) م. ن ٢/٨٤.
(٦٨) م. ن ٢/٢٠.
(٦٩) معجم الأدباء ٣/١٤٥.
(٧٠) اللزوميات ٢/٣١.
(٧١) اللزوميات ١/٤٨ ، طبعة طلاس.
(٧٢) م. ن ٢/١٥٨.
(٧٣) م.ن ١/٦٧.
(٧٤) سورة الحشر ، الآية ٢.
(٧٥) اللزوميات ٢/٣٤٨.
(٧٦) م. ن ١/١٥٠.
(٧٧) م. ن ٢/٣٣٩.
(٧٨) م. ن ٢/٤٨.
(٧٩) سورة الشعراء ، الآية ٨٨–٨٩.
(٨٠) اللزوميات ٢/١٠٧.
(٨١) اللزوميات ٢/١٠٩.
(٨٢) رياض الصالحين ص٤٠٩ ، حديث حسن.
(٨٣) اللزوميات ٢/٣٤٧.
(٨٤) م. ن ٢/٣٨٢.
(٨٥) سورة آل عمران ، الآية ٣٧.
(٨٦) سورة الرعد ، الآية ٢٦.
(٨٧) رياض الصالحين ، ص١٨٨، حديث حسن صحيح .
(٨٨) اللزوميات ٢/٣٣٤.
(٨٩) اللزوميات ١/٣١٥ طبعة دار صادر .
(٩٠) م.ن ٢/٢٣٤.
(٩١) م.ن ٢/٢٢٨.
(٩٢) م. ن ٢/١٠٥.
(٩٣) اللزوميات ٢/١٠٤.
(٩٤) سورة البقرة ، الآية ١٤٣.
(٩٥) شرح سقط الزند ، ٢/٥٥٢.
(٩٦) اللزوميات ٢/٢٣٧، جد: من الجد الذي هو الحظ ، حد : حرم ، والمحدود المحروم.
(٩٧) م. ن ١/٣٨٨ طبعة دار صادر.
(٩٨) رياض الصالحين ص١٠٢، رواه مسلم .
(٩٩) اللزوميات ٢/٢٢٥.

(١٠٠) رياض الصالحين ص٢٣٨ متفق عليه .
(١٠١) اللزوميات ٧٩/١.
(١٠٢) م. ن ٣٤٥/٢.
(١٠٣) م. ن ٢٣٣/١.
(١٠٤) م. ن ٤٤٤/٢.
(١٠٥) م. ن ٤١٧/٢.
(١٠٦) م. ن ٢١/١.
(١٠٧) م.ن ٤٠/١.
(١٠٨) م. ن ٤/١.
(١٠٩) م. ن ٣٨/١.
(١١٠) م. ن ٦٤/١.
(١١١) م. ن ١٠١/١.
(١١٢) صحيح البخاري ١٣/١.
(١١٣) م. ن ٤١/١، الحيا: الغيث ، الحياء : الاستحياء.
(١١٤) سقط الزند ٢٢٤/٢.
(١١٥) رياض الصالحين ص٥٠، حديث حسن .
(١١٦) اللزوميات ٧٥/١.
(١١٧) م.ن ٥٠/٢.
(١١٨) م. ن ١٠٤/٢.
(١١٩) م. ن ٣٣٩/٢.
(١٢٠) م. ن ٢٢٨/١.
(١٢١) م. ن ٢٩/٢، يكوس : البعير الذي يمشي على ثلاث قوائم، أي : الذي فيه عرج.
(١٢٢) أبو العلاء عقيدة ومرجعية ، ص٢٤، (بحث).
(١٢٣) ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣٨٩.
(١٢٤) تعريف القدماء ص٢٠، والنص من المنتظم ١٨٤/٨.
(١٢٥) م. ن ص٢٠، نقلاً عن المنتظم ١٨٤/٨ وأبو الوفاء هو: علي بن عقيل شيخ الحنابلة في بغداد ، وكان صاحب مشاركة في العلوم ، ت ٥١٣هـ .
(١٢٦) ينظر : تعريف القدماء ص١٧، والنص من نزهة الألبا في طبقات الأدبا .
(١٢٧) ينظر : تعريف القدماء ص٢٢٣.
(١٢٨) ينظر : م. ن ص٣٥٤ والنص من نزهة الجليس.
(١٢٩) ينظر : م. ن ص١٩٩-٢٠٠.
(١٣٠) ينظر : م. ن ص١٥٣.
(١٣١) نقلاً عن م. ن ص٤٩٤.
(١٣٢) م. ن ص٦٧ والنص من أرشاد الاريب الى معرفة الأديب .
(١٣٣) ينظر : تعريف القدماء ص٢١١ والنص من تتمة المختصر في أخبار البشر وينظر لإنتصار ممن عدل عن الاستبصار لابن السيد البطليوسي ، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٩٦م .
(١٣٤) ينظر :زجر النابح (مقتطفات) أبو العلاء المعري ، تحقيق د. أحمد الطرابلسي مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٥م، وينظر : النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري ، حميد سمير ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥، ص١٦٦ وما بعدها ، فقد تعرض المؤلف لهذا الكتاب بالدراسة والتفصيل
(١٣٥) اللزوميات ٢٥٩/٢.
(١٣٦) سورة الحج ، الآية ٦٠.
(١٣٧) زجر النابح ص٦٣.
(١٣٨) شرح اللزوميات ٨٦/٢ .
(١٣٩) زجر النابح ص٦٤.
(١٤٠) شرح اللزوميات ٢٢٨/٢.
(١٤١) مقدمة زجر النابح ص٢٢.
(١٤٢) شرح اللزوميات ٤٠٨/١.
(١٤٣) زجر النابح ص٤٥،وقوله المتهم قصد نفسه.

(١٤٤) تعريف القدماء ص٢٠١-٢٠٢ نقلاً عن تاريخ الاسلام للذهبي.

(١٤٥) ينظر : تجديد ذكرى أبي العلاء ص١٧٢.

(١٤٦) ينظر: مع أبي العلاء في سجنه ص١٤٣، دار المعارف – القاهرة ، د. ط. وينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء ص١٧١.

(١٤٧) رأي في أبي العلاء ، ص٩١، جماعة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٤٥م.

(١٤٨) ينظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص٢٠٤-٢٠٧، د. شوقي طيف ، مكتبة الاندلس ، بيروت ، ط٢، ١٩٥٦م.

(١٤٩) معجم الأدباء ، ١٤٠/٣.

(١٥٠) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣٨٢، ٣٩٥.

(١٥١) ينظر : مقدمة رسالة الغفران ، ص١٩.

(١٥٢) ينظر : النص وتفاعل المتلقي ص١٥٥، ١٤، ١٧٠.

(١٥٣) العبقري : هو انسان ذكي متميز الذكاء ، وهو متميز الذكاء ،وليس متميزاً بالذكاء على الآخرين من الناس الأسوياء عقلياً، فكل هؤلاء أذكياء ولا يختلف العبقري عنهم الا في درجة الذكاء . التفسير النفسي للأدب ص٣٧، وينظر : العبقرية في الفن ، مصطفى سويف ص٢٤، ٣٧، ٤٦، العدد ٢٠، ضمن سلسلة المكتبة الثقافية ،وكذلك ذهب الدكتور شوقي طيف الى ان المعري لم يكن فيلسوفاً بالمعنى اليوناني ؛ لأنه لم يترك نظرية فلسفية معللة ، وإنما كان متأثراً بها ، وهذا ما ذهنا اليه ، ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣٩٣.

(١٥٤) ينظر : النص وتفاعل المتلقي ص١٥٣.

(١٥٥) ينظر : النقد الأدبي – دراسة جمالية وفلسفية ص٢٤، جيروم تولينز ، ترجمة فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢.

(١٥٦) المدخل الى نظرية النقد النفسي ص٨١.

(١٥٧) الأدب الملتزم – جان بول سارتر ص٥٤-٥٥، ترجمة : جورج طرابيشي، دار الآداب ، بيروت ، ط٢، ١٩٦٧م.

(١٥٨) تعريف القدماء ص١٩٦، والنص من تاريخ الاسلام والمنتظم وغيرهما ، أما رواية الديوان فقد وردت باختلاف بعض المفردات إذ يقول :

دعا موسى فزال ،وقام عيسى
وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دين غير هذا
وأودى الناس بين غدٍ وأمس
ومهما كان في دُنياك أمرٌ
فما تُخليك من قمرٍ وشمس
وآخرُها بأوّلها شبيه
وتصبح في عجائبها وتمسي
قدومُ أصاغرٍ ورحيلُ شيبٍ
وهجرةٌ منزلٍ وحلول رَمسِ
لحاها الله داراً ما تُداري
بمثل الميْن في لجج وقمس
إذا قلتُ المُحال رفعتُ صوتي
وإن قلتُ اليقين أطلت همسي

ينظر : اللزوميات ٥٥/٢، المين – الكذب ، القمس – الغوص في الماء .

(١٥٩) تعريف القدماء ص١٣، والنص ذكر في أكثر من مصدر مثل تاريخ الاسلام والمنتظم.

(١٦٠) سقط الزند ١٨٣/١.

(١٦١) م. ن ١٧٢/١.

(١٦٢) تعريف القدماء ص٣٢٣ نقلاً عن عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للغيبي ٤٠/١. والابيات مما لم يرو في الديوانين.

(١٦٣) اللزوميات ٩٦/١.

(١٦٤) م. ن ١/١١٠.

(١٦٥) م. ن ٢/٢١٣.

(١٦٦) م.ن ٢/١٨٧.

(١٦٧) م.ن ٢/٤٠٧.

(١٦٨) م. ن ١/٢٣٣.

(١٦٩) م.ن ٢/٢٩.

(١٧٠) م.ن ٢/٤٣٦.

(١٧١) م.ن ٢/٣٤٨.

(١٧٢) سورة يوسف ، الآية ٨٢.

(١٧٣) اللزوميات ١/١٩٩.

(١٧٤) شرح سقط الزند ٢/٥٦٨.

(١٧٥) اللزوميات ١/١٣٩.

(١٧٦) رياض الصالحين ص١٠٣، متفق عليه.

(١٧٧) اللزوميات ١/٢٠٢.

(١٧٨) ينظر : النص وتفاعل المتلقي ص١٧٠ وما بعدها ، فقد أسهب المؤلف في بيان اللغز والتلميح في أشعار المعري .

(١٧٩) لانتصار ممن عدل عن الاستبصار ص٤٧.

(١٨٠) اللزوميات ٢/١٥٥.

(١٨١) م.ن ٢/١٥٩.

(١٨٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠.

(١٨٣) اللزوميات ٢/١٨٩.

(١٨٤) م.ن ١/١٧٥.

(١٨٥) م.ن ٢/١٨٢.

(١٨٦) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥.

(١٨٧) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣.

(١٨٨) اللزوميات ٢/٧٦.

(١٨٩) شروح سقط الزند ٢/٥٢٨.